مجلة رهانات

العدد 44 • 2018

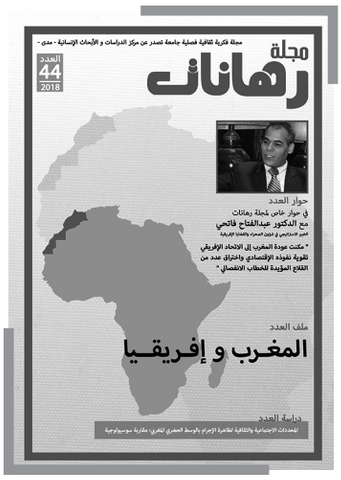

محتويات العدد

افتتاحية العدد 2

• المغرب وإفريقيا

ملف العدد المغرب وإفريقيا 4

• المغرب ورهانات التكتل في المحيطين المغاربي والإفريقي - إدريس لكريني 4

• إشكالية الاندماج المغاربي والتوجه المغربي نحو تنويع الشراكات «رابطة أسيان نموذجا» - إسماعيل الرزاوي 8

• النزاع السوداني في ضوء القانون الدولي الإنساني: حالة دارفور - عبدالهادي قاسمي 18

• الحركات الجهادية بالساحل الإفريقي : تحالفات ظرفية - أحمد صلحي 32

• المغرب بين الخيارين الإفريقي و المغاربي - المختار بنعبدلاوي 37

• الاستراتجية المغربية في إفريقيا: الرهانات و التحديات - عبد العالي حور 41

حوار 47

• في حوار مع الدكتور عبدالفتاح فاتحي لمجلة رهانات : «مكنت عودة المغرب إلى الاتحاد الإفريقي في تقوية نفوذه الإقتصادي واختراق عدد من القلاع المؤيدة للخطاب الانفصالي»

دراسات 54

• تدبير الاختلاف والتعدد الثقافي - رشيد مشرف

نصوص وإبداعات 64

• أول إنسان عاقل منذ ثلاثمائة ألف عام في بلادنا و سؤال إدراك الكون و التقدم - عبدالكبير مولوع

قراءات 66

• في تحليل الحقل الدلالي لمفهوم « الشرافة» ..نسق تقاطع سلطات الدولة والمجتمع بشمال المغرب قبل الحماية - أسامة الزكاري

إصدارات 70

• الوصية الفكرية الأخيرة لمحمد أركون

• الطاهر بنجلون يستعرض «الإرهاب كما نشرحه لأولادنا

• مؤلف جماعي حول «الترجمة وإشكالات المثاقفة»

• كتاب جماعي يسعى إلى إضافة جذرية إلى البلاغة العربية المعاصرة

ترجمات 73

• ترجمة مقال ميشال أجيي، في ذكرى رحيل جورج بلانديي - وديع جعواني

مقالات 77

• الفلسفة والأدب لقاء كونديرا برمل بورخيس... - حسن الإدريسي

شروط النشر في مجلة رهانات

1. المجلة لا تنشر بحوثا سبق نشرها أو أنها معروضة للنشر في مكان آخر.
2. ضرورة اعتماد الأصول العلمية المتعارف عليها في كتابة الأبحاث و خاصة فيها يتعلق بالتوثيق و الإشارة إلى المصادر و المراجع.
3. يجب ألا يتجاوز عدد كلمات الدراسة 3000 كلمة.
4. على الباحث أن يرفق ببحثه نبذة مختصرة عن سيرته العلمية، إلى جانب صورته الشخصية.
5. البحوث و الدراسات التي تقترح هيئة التحرير إجراء تعديلات عليها أو إضافات إليها تعاد إلى أصحابها لإجراء التعديلات المطلوبة قبل نشرها.

مجلة رهانات

مجلة فكرية ثقافية فصلية جامعة تصدر عن مركز الدراسات والأبحاث الإنسانية · مدى ·

ملف الصحافة: 45 ص 05

رقم الإيداع القانوني 2006-142

عنوان المراسلة:

مركز الدراسات و الأبحاث الإنسانية

29 زنقة عمر السلاوي - الدار البيضاء

الهاتف: 27 42 22 22 05

rihanatmada98@gmail.com

www.madacenter.ma

المدير و رئيس التحرير

المختار بنعبدلاوي

أعضاء هيئة التحرير

محمد جليد

حياة الدرعي

زكرياء أكضيض

كمال فهمي

محمد لهبوز

عبد الإله الكلاخة

عبد العالي صابر

الغلاف و الإخراج الفني

المهدي نجمي

محمد أمين نجمي

الطبع

طباعة دريم

05 22 52 88 51

التوزيع

سابريس - الدار البيضاء

جميع الآراء الواردة في هذه المجلة تعبر عن وجهة نظر أصحابها و لا تعكس بالضرورة رأي المجلة

Rihanat_No44 modif 1.indd 1 11/02/2018 23:57:17

المغرب وإفريقيا



د. المختار بنعبدلاوي

بدت إفريقيا كخيار ضرورة أمام المغرب، بعد أن مضى أكثر من نصف قرن على استقلال أقطار المغرب العربي دون أن تنجح الحركات الوطنية التي وصلت على الحكم، أو تلك التي شاركت فيه، أن تفي بالتزاماتها تجاه شعوبها، وأن تتقدم ولو خطوة في المشروع المغاربي الكبير.

بدت علامات التنصل الأولى من المشروع المغاربي علىقيادة الحزب الدستوري الجديد التونسي،في شقه السياسي على الأقل، منذ لقاء طنجة سنة 1958.كانت تونس أكثر البلدان حاجة إلى هذا المشروع اقتصاديا، بالنظر موقعها الجغرافي، ومحدودية مواردها وسوقها.نعم، نجحت تونس في بناء مجتمع مندمج، بطبقة وسطى واسعة ونشيطة، وخدمات اجتماعية مقبولة، ونظام تعليمي ناجح إلى حدود نهاية التسعينيات، لكن قلة الموارد الطبيعية، وضيق السوق، وتوقف حركة الهجرة إلى أوربا...الخ. بالإضافة إلى عوامل أخرى يطول الحديث عنها، كانت تقف سدا منيعا أمام أي طموح ممكن لبناء اقتصاد قطري نام بقدراته الذاتية، وقد انضاف إلى هذا الحاجز الاقتصادي، القلق الأمني الذي تعاظم بعد أحداث قفصة، وسعي الراحل القذافي إلى إلحاق تونس بليبيا.

على خلاف تونس كان بحر النفط الذي يرقد فوقه معمر القذافي، والاحتياطي الهائل الذي يملكه من العملة الصعبة، يجعله يشعر بأنه الأقل حاجة إلى الاتحاد المغاربي،لذلك فإن التوجه المغاربي في السياسة الليبية، على امتداد حكم الرجل، كان محكوما باستمرار إما باعتبارات أيديولوجية أو باللعب على التوازنات الإقليمية، ولم يحمل أي بعد إجرائي، وهو الخطأ الاستراتيجي الذي وقع فيه صاحب الكتاب الأخضر عندما وجد نفسه وحيدا ومعزولا أسابيع قبل سقوطه.

تأتي موريتانيا بعد تونس مباشرة في حاجتها إلى الفضاء المغاربي، فهي إلى جانب الهشاشة الاقتصادية، بحاجة ماسة للمحافظة على توازناتها السكانية الهشة، وهو لربما التهديد الأساسي الذي جعلها تنسحب، في وقت سابق، من تجمع بلدان غرب إفريقيا. وبقدر ما كانت موريتانيا بحاجة إلى اتحاد المغرب العربي، بقدر ما كانت عاجزة عن الدفع باتجاه هذا الهدف. أولا بسبب محدودية تأثيرها الإقليمي، وثانيا بسبب حساسية التوازنات المغربية الجزائرية التي يجب أن تراعيهابدقة.

تدرك موريتانيا أن انحيازها للجزائر سوف يحرمها من كثير من المزايا الاقتصادية والتجارية، ولكنها تدرك أكثر من ذلك أن ثمن أي انحياز للمغرب قد يكون على حساب أمنها واستقرارها، ولذلك فهي تبقى محكومة بهذه المعادلة التي قد تميل قليلا إلى هنا أو هناك... ولكنها تبنني دائماعلى أن هناك خطوطا حمراء لا يمكن تجاوزها.

كان المغرب يضع دائما الاتحاد المغاربي على رأس أولوياته، لا سيما على مستوى احتياجاته التنموية. وكان في كل مرة يجد نفسه في موقف تفاوضي ضعيف في كل جولة مفاوضات مع دول شمال المتوسط، سواء فرادى أو بصفة الاتحاد الأوربي، كما كان يتطلع دائما إلى أن تمثل المصالح الاقتصادية المشتركة فرصة للخروج من الحرب الباردة / الساخنة حول الصحراء المغربية.

حاول المغرب، بكل الأشكال، أن يقنع الجزائر بأن الأولويات الاقتصادية لا يجب أن تنتظر الإجماع السياسي، ونجح في أن يجعل أطروحته مقنعة، لفترة قصيرة، على عهد الرئيس الشاذلي، ثم هوى كل شيء بسبب رفض المؤسسة العسكرية للخيارات التي أخذ بها الرئيس الشاذلي، وكذلك بسبب حادث أمني نشاز في مراكش.

عبر المغرب عن سخطه على إجهاض المشروع المغاربي بأشكال متعددة، تارة عبر توجيه دعـوات مباشرة تُحمل المسؤولية للجزائر، وتارة أخرى بطلب الانضمام إلى الاتحاد الأوربي، ولو عبر صرخة يائسة، تسعى في الوقت نفسه إلى لفت نظر أوربا إلى حيوية الشراكة بين الشمال والجنوب، وإلى تنبيه الجزائر إلى أن الاتحاد المغاربي ليس الخيار الوحيد أمام المغرب، وأن هناك بدائل أخرى في متناوله.

في مقابل هذا إلحاح المغرب، تصرفت المجموعة الرمادية التي تتحكم في القرار الجزائري وكأنها فقدت الإحساس بالزمن، أوكأنها غير معنية بالتغيرات العالمية أو حتى برفاهية واستقرار الشعب الجزائري. واستمرت في الهروب إلى الأمام ولو أنها تعرف جيدا أن الزمن ليس في صالحها، في ظل كوابيس العشرية السوداء وإعصار الربيع العربي أو حتى مآلات الأنظمة الشمولية والمغلقة، منذ زهاء ربع قرن في شرق أوربا!

في سياق هذه المعطيات الإقليمية، يحمل طلب الانضمام إلى اتحاد غرب إفريقيا مغامرة كبرى بالنسبة للمغرب. من جهة، لا يخلو هذا التوجه من بعض المزايا التجارية، بسبب موقع المغرب الجغرافي، وتقدمه النسبي، مقارنة بعدد من اقتصادياتدول هذا التجمع. من جهة ثانية، هناك إكراهات واضحة سوف تطرحنفسها عليه، بسبب ما يتضمنه هذا الانضمام من التزامات تشملحرية تنقل الأشخاص داخل هذه المنظومة الإقليمية،وما يحمله ذلك من تداعيات يمكنها أن تؤديإلى تفاقم الوضعية الاجتماعية للمغرب، وتسارع في تحويله من بلد عبور إلى بلد استقرار نهائي، بحيث تمتص موجات الهجرة إليه أكثر بكثير مما تحققه جهود التنمية. يعني هذا الانضمام فيما يعنيه كذلك أن المغرب سوف يكون مضطرا للتنازل عن الدرهم كعملة سيادية، مقابل الفرنك الغرب إفريقي، وهو ما يفضي إلىإلزامية خضوعه للسياسات المالية التي سوف تصبح شأنا بيروقراطيا من اختصاص المجموعة الاقتصادية الإفريقية. كما سوف يصبح ملزما بمضمون الاتفاقيات التي تبرمها المجموعة مع شركاء قارين أو خارجيين.

تصرف الإعلام الرسمي المغربي، منذ تقديم طلب الالتحاق، وكأن الانضمام إلى مجموعة غرب إفريقيا أمر ناجز، وهو ما لم يكن عليه الحال،لا سيما بسبب عدد من التحفظات الاقتصادية، وربما السياسية كذلك، ولما قد يؤدي إليه ذلك من منازعات ومن اصطفافات، وهوما يقتضي البحث عن تفاهمات مع نيجيريا بصورة خاصة، وإقناعها أن ما سوف تكسبه من انضمام المغرب، ومن مراجعة تحالفاتها القارية هو أكثر مما ستخسره!

يتبين من مجمل هذا المشهد أن الامتداد الإفريقي للمغرب مفيد إذا كانت الغاية منه هي تحقيق نوع من الشراكة الاستراتيجية، التي تمكن المغرب من جني عدد من المكتسبات الاقتصادية، والاحتفاظ بقدر واسع من الاستقلالية في القرار الاستراتيجي. وهو مايفترض فيه أن يكون متوازيا مع توسيع وتعميق الشراكة المتقدمة مع الاتحاد الأوربي، وفي الوقت نفسه، ألا يسد السبل أمام المسار المغاربي، الذي بالرغم من تعقيداته الحالية، فهو يمثل الخيار الاستراتيجي الأنسب على المدى البعيد. خصوصا وأنالتطور الاستراتيجي للاقتصاد المغربي، في سياق هذه المحاور الثلاثة، من شأنه أن يجعل منه حلقة التقاطع الرئيسية في الإقليم، ويمنحه إمكانية المبادرة، والاستقلالية في القرار، وكذلك التوازن الضروري من أجل تنمية سريعة ومستدامة.

Rihanat_No44 modif 1.indd 2-3
11/02/2018 23:57:18

المغرب ورهانات التكتل في المحيطين المغاربي والإفريقي



د.إدريس لكريني

مدير مختبر الدراسات الدولية حول إدارة الأزمات بجامعة القاضي عياض؛ ورئيس منظمة العمل المغاربي

لا أحد كان يتوقع قبل أكثر من نصف قرن؛ أن أوربا التي ظلت تعيش على إيقاع الحروب والصراعات الطاحنة على امتداد سنوات عديدة؛ ستؤسس لتجربة واعـدة في التنسيق والتكتل؛ تتوارى خلفها النزاعات والخلافات الضيقة لتفتح الباب على مستقبل مشرق تصنعه الشعوب يحيل إلى التنمية والممارسة الديمقراطية.

لا شك أن مرارة الظروف التي مرّت بها أوربا؛ وما رافقها من مآس إنسانية وبيئية واقتصادية.. كان لها الأثر الكبير في استجلاء الدروس والعبر من مجمل الحروب المدمّرة التي لم ينتصر فيها أحد أصلا؛ على اعتبار أن نهاية كل حرب ما هي إلا بداية حرب وانتقام جديدين.

رغـم التنوع والاخـتـلاف الذي يميز القارة الأوربية دينيا وثقافيا ولغويا..؛ ورغم محطّات الحروب التي تميز تاريخها؛ إلا أنها استطاعت أن تراكم تجربة متميزة على الصعيد العالمي في مجال التكتل الذي تجسده تجربة الاتحاد الأوربي. فهذا الأخير انطلق متدرّجا ومتواضعا في أعقاب الحرب العالمية الثانية؛ ليؤسس لمفهوم جديد للتعاون والتنسيق وللأمن الإقليمي في صورته المنفتحة؛ قبل أن يتحوّل الرهان مع توالي المكتسبات إلى الوحدة الأوربية التي عززتها الكثير من الاتفاقيات والتشريعات والتدابير الداعمة للعمل المشترك على مختلف الواجهات.

جاء الاتحاد الأوربي نتاج انفتاح سياسي واقتصادي عرفته القارة العجوز في منتصف القرن المـاضي؛ وأسهم في دعـم التحول الديمقراطي في مجمل دول أوربا؛ كما أنه سمح بوضع إطار للتنسيق وتبادل الآراء والمواقف إزاء مختلف الإشكالات والقضايا الخلافية التي طالما شكلت في الماضي حطبا مغذّيا لكل النزاعات والأزمات التي أصابت أوربا.

مع تشبيك المصالح والعلاقات الاقتصادية والثقافية والسياسية.. أصبح من المستحيل العودة إلى الوراء أو إحياء المحطات القاتمة من تاريخ أوربا(مشكلة الألزاس واللورين بين ألمانيا وفرنسا..)؛ ذلك أن حجم المصالح المشتركة والاتفاقيات المؤطرة لها؛ يعد أكبر ضامن يحول دون التورّط في قرارات عشوائية وغير محسوبة العواقب.

ظل هاجس البناء المغاربي حلما لدى الأجـداد؛ وهو ما عكسه حجم التنسيق والتعاون بين حركات التحرر الوطني في مواجهة الاستعمار الذي شهدته الدول المغاربية. وكذا الاجتماعات المتتالية بين زعماء الحركات الوطنية المغاربية على طريق تحقيق هذا الرهان الاستراتيجي.

يبدو أن رموز حركات التحرّر ومهندسي الاستقلال في المنطقة؛ كانوا على وعي بأهمية التعاون والتنسيق لمواجهة تحديات مشتركة؛ سواء تعلّق منها بمجابهة المستعمر ومخططاته الهدامة؛ أو ببناء دول قوية في منطقة حبلى بالإشكالات والمخاطر. كما أنهم استوعبوا مبكرا حجم القواسم المشتركة والمقوّمات الداعمة لبناء مغاربي قويّ؛ في أبعادها الثقافية واللغوية والحضارية والجغرافية والتاريخية.

بدأت أولى الخطوات الساعية لبناء اتحاد مغاربي في منتصف القرن الماضي (سنة 1947) خلال اجتماع ضمّ عددا من قادة المقاومة المغاربيين في القاهرة؛ وتعززت هذه المحاولات باللقاء الهام الذي انعقد بمدينة طنجة (شمال المغرب) سنة 1958 وضمّ عددا من الأحـزاب الوطنية المغاربية (جبهة التحرير الوطني الجزائري، والحزب الحرّ الدستوري من تونس وحزب الاستقلال من المغرب) شكل مناسبة لرسم الأسس والمبادئ الأولى لبناء الاتحاد؛ ممّا مهد الطريق لإحداث اللجنة الاستشارية للمغرب العربي سنة 1964 التي حرصت على إعداد الأجواء المناسبة لتعزيز «الوحدة والاندماج» في مختلف المجالات.

توجّت هذه الجهود بإبرام معاهدة الاتحاد المغاربي بتاريخ 17 فبراير من عام 1989؛ التي خلفت آمالا واسعة في أوساط شعوب المنطقة. ومنذ ذلك الحين شهد مسار الاتحاد مدّا وجزرا؛ فيما ظلت الحصيلة بشكل عـام دون التطلعات والانتظارات ودون التحديات والمخاطر المحيطة بالمنطقة في أبعادها التنموية والأمنية والاجتماعية.

تشير المـمارسـة إلى أن هناك هدرا ملحوظا للفرص ولمختلف المقومات والعناصر المشتركة الداعمة لبناء تكتل مغاربي وازن؛ بما يكلف المنطقة المزيد من الخسائر والانتظار. لقد فتحت أجيال اليوم أعينها على واقع الخلافات المغاربية التي تذكيها بعض القنوات الإعلامية والمواقف السياسية غير المحسوبة، وهي خلافات كتب لها أن تشوّش بشكل حقيقي على مختلف المحطات التاريخية المشرقة والمقومات والمبادرات الداعمة للبناء المغاربي.

ثمّة مجموعة من العوامل المحفزة على تفعيل الاتحاد المغاربي وتعزيز العلاقات بين أعضائه على كافة المستويات؛ فعلاوة على المقومات البشرية والطبيعية والثقافية والاجتماعية والتاريخية..تواجه دول المنطقة مجتمعة الكثير من التحديات الداخلية والخارجية في أبعادها الاقتصادية والأمنية.. والتي تتطلب اليقظة؛ وتجعل من الاندماج والتكتل ضرورة ملحة.

إن كسب هذا الرهان يقتضي الالتفات إلى المشترك المغاربي بكل مكوناته؛ وإلى ما يواجه المنطقة من تحديات ومخاطر لا تستثني أحدا. فالإرهاب ينتعش ويتمدد عادة في مناطق التوتر والحدود المغلقة.. كما أن التدخل الأجنبي غالبا ما يستثمر حالة التشرذم بين الدول لتنفيذ مشاريعه؛ وتحويل



Rihanat_No44 modif 1.indd 4-5 11/02/2018 23:57:19

موازين القوة التفاوضية لصالحه..

يبدو أن نقط الخلاف هي التي يكتب لها الانتشار والرواج في المنطقة على امتداد السنوات الأخيرة؛ في مقابل التعتيم من على كل ما يدعم التواصل والتعاون والتنسيق؛ وهو ما يعبر عن قصور في الرؤية؛ ويحيل إلى القتامة والتشاؤم بصدد مستقبل المنطقة.

في مقابل الحروب الإعلامية التي تركز على نقط الخلاف؛ تطرح مبادرات مغاربية بنّاءة في مختلف المجالات الفنية والرياضية والثقافية والاجتماعية والفكرية.. لا يكتب لها الترويج والمواكبة.. فهناك شخصيات مغاربية في العلم والسياسة والفن والفكر.. لا تتوقف عن التواصل والتنسيق خدمة لقضايا المنطقة.. وعلى امتداد هذه الأخيرة تنتشر أيضا مراكز علمية ومنظمات مدنية تشتغل في الظل.

تفرض المرحلة الراهنة بكل إشكالاتها وتحدياتها إبراز المشترك المغاربي؛ ودعم كل المبادرات البناءة الداعمة لهذا التوجه؛ وتجاوز السجالات الضيقة..؛ وهي مهمة تتقاسمها دول المنطقة؛ إضافة إلى مختلف الفعاليات من أحزاب سياسية وجامعات ومراكز علمية؛ وجمعيات مدنية ونخب مختلفة وإعلام.

جاء انضمام المغرب إلى الاتحاد الإفريقي أخيرا؛ ليعكس الخطوات المحسوبة التي اتخذها على هذا الطريق منذ الإعلان عن هذا التوجه؛ وليجسّد تتويجا طبيعيا لمجهودات ومبادرات كبيرة قامت بها الدبلوماسية المغربية في العقود الأخيرة؛ والتي عمّقتها ودعمتها الزيارات الملكية لعدد من البلدان الإفريقية؛ وهي أيضا تعبير عن قناعة المجموعة الإفريقية بالقيمة المضافة التي تشكلها هذه العودة عبر مؤسسة الاتحاد على مستوى تطوير العمل المشترك ودعم التعاون والتنسيق الإفريقيين في إطار التعاون جنوب – جنوب المبني على تبادل المصالح بشكل ندّي ومتوازن.

يشكّل هذا الانضمام بداية لمعارك يفترض أن تنخرط فيها الدبلوماسية المغربية؛ تتنوع بين تجاوز الصورة القاتمة التي راكمها خصوم المغرب داخل الاتحاد في غيابه؛ وتوضيح مجموعة من العناصر ذات الصلة بقضية الصحراء؛ إضافة إلى تعزيز العلاقات الاقتصادية المغربية- الإفريقية من داخل مؤسسات الاتّحاد، وتجاوز كل ما من شأنه التّشويش عليها.. فضلا عن السعي مستقبلا بمعية الدول الأعضاء الصديقة نحو استثمار مؤسسات الاتحاد وقانونه التأسيسي؛ وخصوصا مقتضيات المادة الثانية والثلاثون منه والمتعلقة بتعديل ومراجعة هذا القانون باتجاه التراجع عن الخطأ الذي تورطت فيه المنظمة بقبولها عضوية كيان لا تتوافر فيه مقومات الدولة كما هي متعارف عليها في القانون الدولي. بما يحصّن سيادة كل الدول الإفريقية المعروفة بتنوعها؛ خصوصا بعد رحيل رئيسة مفوضية الإتحاد «نكوسازانا دلاميني زوما» المعروفة بمواقفها المعادية للمغرب.

إن هذا الانضمام هو بداية ستحمل رهانات وأولويات اقتصادية مرتبطة بتعميق الشراكات والتعاون مع الدول الأعضاء؛ والدفع نحو انكباب الاتحاد على القضايا والأولويات الحقيقية للقارة في علاقتها بمكافحة الإرهاب وإدارة الأزمات وتعزيز الاستقرار وتعميق التعاون وتشبيك المصالح بين الدول الأعضاء ومواجهة التهافت الخارجي المتزايد الذي تتعرض له القارة.

ثمّة سؤال هام يفرض نفسه بقوّة مع حدوث هذا الانضمام؛ ويتعلق الأمر حول ما إذا كان التوجه المغربي نحو إفريقيا سيتم على حساب تعزيز المسار المغاربي؟ لقد أولى المغرب في السنوات الأخيرة أهمية كبيرة للشراكات الاقتصادية والتجارية كسبيل لتطوير العلاقات المغربية - الإفريقية؛ كما لا تخفى الجهود المتخذة على مستوى تثبيت الأمن والسلم في الكثير من مناطق التوتر والأزمات الإفريقية؛ في إطار مبادرات فردية أو ضمن جهود الأمم المتحدة وعمليات الأمم المتحدة في هذا الإطار.

إن هذا التّوجه هو امتداد لخيار استراتيجي يسعى المغرب من خلاله إلى بلورة نموذج واعد على مستوى التعاون جنوب - جنوب؛ بعيدا عن كل أشكال الهيمنة والاستغلال؛ وهو خيار لا يمكن إلا أن يكون في صالح المغرب والدول الإفريقية والمنطقة المغاربية أيضا.

لا يمكن بأي حال من الأحوال؛ النظر إلى انضمام المغرب للاتحاد الإفريقي تنصّلا من التزاماته وخياراته المتصلة ببناء اتحاد مغاربي قوي؛ فقد جاء في تصدير الدستور المغربي لعام 2011 والذي يعد جزءا من هذه الوثيقة؛ أن المغرب يؤكد ويلتزم ببناء الاتحاد المغاربي كخيار استراتيجي؛ إضافة إلى تعميق أواصر الانتماء إلى الأمة العربية والإسلامية، وتقوية علاقات التعاون والتضامن مع الشعوب والبلدان الإفريقية، وتعزيز روابط التعاون والتقارب والشّراكة مع بلدان الجوار الأورو-متوسطي؛ وتوسيع وتنويع علاقات الصداقة، والمبادلات الإنسانية والاقتصادية والعلمية والتقنية والثقافية مع كل بلدان العالم؛ وتقوية التعاون جنوب-جنوب.

كما أن العاهل المغربي الذي يحظى بمهام دستورية محورية ورئيسية في مجال السياسة الخارجية وباعتباره الفاعل الأساسي في هذا الشأن؛ أكّد في كثير من المناسبات على أهمية وضرورة دعم البناء المغاربي باعتباره خيارا ناجحا لمواجهة مختلف التحديات التي تواجه المنطقة برمتها؛ مؤكّدا على أهمية تشبيك العلاقات الاقتصادية بين دول المنطقة وداعيا أيضا إلى تجاوز الخلافات الضيقة.. بالانفتاح على المستقبل.

خلال أشغال القمة الثامنة والعشرين لقادة دول ورؤساء حكومات بلدان الاتحاد الإفريقي التي احتضنها العاصمة الإثيوبية أديس أبابا يومي 30 و31 يناير 2017؛ لم يفوّت العاهل المغربي الفرصة للتطرق لهذا الموضوع ضمن خطابه أمام أعضاء الاتحاد في أعقاب الانضمام؛ حيث أكد أن المغرب ظلّ مؤمنا بأن قوته ينبغي أن تستمد من اندماجه في محيطه المغاربي؛ ونبّه في نفس الوقت إلى أن شعلة الاتحاد المغاربي انطفأت، وصارت معه المنطقة الأقلّ اندماجا في القارة الإفريقية، إن لم يكن في العالم أجمع، بفعل غياب الإيمان بمصير مشترك؛ وضعف المبادلات التجارية بين أطرافه.. على عكس ما تشهده الكثير من التنظيمات الإفريقية الفرعية في هذا الشأن.

يضيف العاهل المغربي أن عدم التحرّك؛ وأخذ العبرة من التجمعات الإفريقية المجاورة؛ والاستجابة للطموحات التي حملتها اتفاقية مراكش التأسيسية؛ سيعجّل حتما بحلّ الاتحاد المغاربي. وتعكس هذه الإشارة الصريحة حرص المغرب على دعم هذا البناء الذي رافقته الكثير من الانتظارات والطموحات المغاربية؛ خصوصا وأن هناك عددا من المقومات البشرية والثقافية والتاريخية والطبيعية.. التي تجعل المراهنة على هذا الخيار رابحة في عالم سمته التّكتل..

من هنا؛ لا يمكن قراءة التوجه المغربي الأخير نحو تعزيز علاقاته الإفريقية من داخل الاتحاد؛ تراجعا عن الاتحاد المغاربي كخيار استراتيجي؛ خصوصا وأن تعزيز هذا البناء سيضمن حضورا مغاربيا فاعلا داخل هذا التكتل الإفريقي؛ ويسمح بمنح المنطقة المغاربية مكانة وازنة داخل إفريقيا؛ بالنظر إلى موقعها الاستراتيجي وإمكانياتها المتنوعة.

إن التكتل في عالم اليوم هو خيار ملحّ تفرضه الإشكالات المنفلتة والعابرة للحدود في أبعادها المختلفة والتي تستدعي التعاون والتنسيق، ورغم الإشكالات المختلفة التي تواجه الاتحاد المغاربي في الوقت الراهن؛ والكلفة الاقتصادية القاسية التي يفرزها الجمود الذي يحيط بمؤسساته؛ فإن هذا الأخير يظلّ مطلبا استراتيجيا.. سيسمح حتما بمواجهة مختلف المخاطر والتحديات التي تواجه المنطقة مجتمعة (تمدد الإرهاب؛ والإشكالات المتصلة بالهجرة السرية؛ والتفاوض مع دول الضفة الشمالية من المتوسط..) وكسب رهانات التنمية في المنطقة. ■

Rihanat_No44 modif 1.indd 6-7
11/02/2018 23:57:19

إشكالية الاندماج المغاربي والتوجه المغربي نحو تنويع الشراكات «رابطة أسيان نموذجا»

إسماعيل الرزاوي

تقديـــــم :

تعتبر تجربة بناء الاتحاد المغاربي[1] من التجارب المهمة في مجال التكامل الإقليمي على مستوى منطقة شمال افريقيا، وقد جاءت محاولة تكوين هذا الاتحاد الإقليمي على غرار مجموعة من اتحادات عربية أخرى، فبالرغم من توافر مجموعة من المقومات والخصائص لقيام هذا التكتل وقدرته على الاضطلاع بـأدواره إلا انه اخفق في انجاز ذلك . فطغيان الخلافات السياسية الثنائية من جهة ثم المعوقات الاقتصادية التي تحول دون تحقيق الاندماج الحيوي من جهة اخرى جعلته اتحادا جامدا ويسير الى مزيد من التجزئة[2] .

أمام هذا العجز الذي يصيب الاتحاد المغاربي، فضل المغرب أن ينهج سياسة جديدة ترمي تنويع شركاءه وشراكاته الدولية، وذلك عبر تقوية شبكة علاقاته الدولية الثنائية مع القوى الصاعدة و متعددة الأطراف عبر الانخراط والتفاعل بشكل مكثف مع تكتلات وتجمعات جهوية من مناطق مختلفة من العالم .. فقد اضحى المغرب اليوم، بفضل السياسة التي ينهجها جلالة الملك محمد السادس لإرساء التعاون جنوب ــ جنوب، يتمتع بمصداقية كبيرة ويحتل مكانة هامة على الصعيد الدولي، مكنته من أن يكون أول بلد إفريقي معتمد لدى منظمة دول شرق البحر الكاريبي، وأن يحظى بصفة عضو مراقب في نظام التكامل لأمريكا الوسطى (سيكا)، وبمجموعة دول أمريكا اللاتينية والكاريبي، ومن **انضمامه إلى معاهدة الصداقة والتعاون لرابطة دول جنوب شرق آسيا (آسيان)**

تأسيسا على ما سبق سنحاول من خلال هذه الورقة تسليط الضوء على سياسة المغرب الخارجية الجديدة التي اتخذت من الشرق الأسيوي فضاء لنشاطها نظرا لديناميته وأهميته الجيوسياسية والجيواقتصادية الكبرى آخذين من رابطة تجمع الأسيان نموذجا للدراسة، وذلك لما تتمتع به هذه الأخيرة من مقومات و مؤهلات مهمة.

المحور الأول : مأزق الاتحاد المغاربي و توجه المغرب نحو تنويع الشراكات.

قد يبدو واضحا للعيان انه بعد مرور اكثر من 28 سنة على تأسيس الاتحاد المغاربي أن هذا الأخير لم يحقق شيئا لحدود الآن بالنظر الى مجموعة من المشاكل التي لا زالت تحول دون اقلاعه، وبالتالي فتبعات هذا الجمود تكلف دول الاتحاد غاليا، إذ يظل هذا الاتحاد من أضعف التكتلات عبر العالم، وجراء هذا الوضع يجد المغرب نفسه مرغما على البحث عن بدائل أخرى للحفاظ على مصالحه.

أولا :إشكالية الاندماج المغاربي وانعكاسها على المغرب.

يشكل البعد المـغـاربي اختيارا استراتيجيا بالنسبة لكل دول المغرب الكبير ، فالكتابات التي تناولته فصلت في المنافع والتي قد يمنحها لأطرافه ، لكن المعوقات وسوء الفهم حال دون تفعيل هذا الاتحاد، وخاصة بين الثنائي الذي يمثل حجره الأساس وعموده الفقري الا وهو الثنائي المغربي الجزائري ، حيث اثرت العلاقات السلبية بين المغرب والجزائر في بلورة هذا البناء و عطلت بشكل كبير من حركتيه حيث ظل عاجزا طوال فترة تأسيسه عن تحقيق أهدافه المنشودة[3] و الاستجابة لتطلعات و انتظارات الشعوب المغاربية، هذا بالرغم من التحولات التي عرفتها المنطقة في سياق ما سمي بالربيع العربي حيث لم تفلح هذه الأخيرة في دفع عجلة الاتحاد نحو الامام مع الأسف .

يعتبر بناء الاتحاد المغاربي خيارا استراتيجيا بالنسبة للمغرب فقد كرس الدستور ذلك، فهو ليس مجرد هدف بل انه انتماء وفي نفس الوقت أفـق استراتيجي لعمل الدبلوماسية المغربية وهو بذلك يؤكد التزام المغرب بهذا الإطـار الوحدوي رغم العراقيل والصعوبات التي تواجهه خاصة النزاع حول الصحراء رغم المقترح للحكم الذاتي واستمرار إغـلاق الحدود المغربية – الجزائرية ، وتعنت الجزائر في التعاون الثنائي لمواجهة التهديدات الإرهابية و الجريمة المنظمة[4] فان المغرب لا زال ينهج سياسة اليد الممدودة إلى جارته الشرقية أملا أن تتفاعل معها الجزائر بشكل إيجابي. وهو يسعى الى تطوير العلاقات المغاربية في اطار اتحاد المغرب الكبير ومواصلة الجهود المشتركة لتفعيل دور هذا التجمع الإقليمي بغية بناء شراكة سياسية واقتصادية وامنية وعسكرية إقليمية، تقف في وجه التحديات التي تواجه دول المنطقة.

حسب الدكتور محمد تاج الدين الحسيني ف « للمغرب توجهات نحو عدة مناطق من العالم وتتشابك علاقاته على مستوى السياسة الخارجية، المغرب الكبير يمثل البعد الجهوي الذي يعتبره المغرب دائما بعدا أساسيا واستراتيجيا، هذا الشيء تفرضه الجغرافية قبل أي شيء آخر، فعلى سبيل المثال عندما طلب من المغرب الانضمام إلى مجلس التعاون الخليجي اعتذر المغرب عن ذلك على أساس أن ارتباطه بالمغرب الكبير هو خيار استراتيجي، وهذا يؤكد حتى في الدستور على أن المغرب جزء من المغرب الكبير، وبالتالي فالمغرب لن يتنازل كيفما كانت الظروف عن اندماجه الجهوي في إطار المغرب الكبير[5]».

أما بخصوص الوضع الاستراتيجي للمغرب، فيرى الدكتور محمد تاج الدين الحسيني «انه مطوق من طرف الجزائر شرقا (« حدود مغلقة ، مسألة صعبة بالنسبة للاقتصاد المغربي مستقبلا ») وشـمالا بالبحر الأبيض المتوسط، غربا بالمحيط الأطلسي وجنوبا بموريتانيا التي هي حلقة ضعيفة جدا في حلقة الاندماج المغاربي، وبالتالي هذا النوع من التطويق كان يفرض على المغرب دائما أن ينفتح نحو آفاق أخرى ».

إزاء هذه الوضعية الصعبة يجد المغرب نفسه مضطرا لان يبحث عن شراكات جديدة تخرجه من هذا الوضع الذي هو فيه وهنا ويأتي الخطاب الملكي أمام القمة الإفريقية بأديس أبابا ليؤكد بالفعل بأن الاتحاد المغاربي يحتضر، وأنه بات من اضعف التجمعات الإقليمية حول العالم فقد جاء في الخطاب :

«(...) وقد ظل المغرب يؤمن دائما، بأنه ينبغي، قبل كل شيء، أن يستمد قوته من الاندماج في فضائه المغاربي. غير أنه من الواضح، أن شعلة اتحاد المغرب العربي قد انطفأت، في ظل غياب الإيمان بمصير مشترك. فالحلم المغاربي، الذي ناضل من أجله جيل الـرواد في الخمسينيات من القرن الماضي، يتعرض اليوم للخيانة. ومما يبعث على الأسى، أن الاتحاد المغاربي يشكل اليوم، المنطقة الأقل اندماجا في القارة الإفريقية، إن لم يكن في العالم أجمع (...) وإذا لم نتحرك، أو نأخذ العبرة من التجمعات الإفريقية المجاورة، فإن الاتحاد المغاربي سينحل بسبب عجزه المزمن على الاستجابة للطموحات التي حددتها معاهدة

الهوامش

1 - تم التوقيع على معاهدة تأسيس اتحاد المغرب العربي بتاريخ 1989/02/17 بمدينة مراكش ، ويتألف الاتحاد من خمس دول : المغرب ـ الجزائر ـ تونس ـ ليبيا ـ موريتانيا.

2 - د / عادل مساوي ــ د / عبد العلي حامي الدين ، « المغرب العربي ـ التفاعلات المحلية والإقليمية والإسلامية ، ورقة بحثية منشورة على الانترنت .. ص

3 - د الحسن بوقنطار ، السياسة الخارجية المغربية 2000-2013 ، منشورات المجلة المغربية للإدارة المحلية والتنمية ، سلسلة « مواضيع الساعة « ، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط ، الطبعة الأولى 2014ص 82

4 - مجموعة باحثين ، تنسيق وتقديم الدكتور سعد الدين العثماني ،تجربة الإصلاح الدستوري في المغرب ، منتدى العلاقات العربية والدولية ،ص 128

5 - اقرأ الحوار كاملا مع ضيف العدد من مجلة رهانات الدكتور محمد تاج الدين الحسيني. عدد 38. ملف العدد : السياسة الخارجية المغربية ، اية استراتيجية ؟ ص 46 - 60

Rihanat_No44 modif 1.indd 8-9
11/02/2018 23:57:20

مراكش التأسيسية، منذ 28 سنة خلت (...)»[6].

ثانيا :المغرب و سياسة تنويع الشراكات.

أمام هذه الحالة من الجمود الذي يعرفها الاتحاد المغاربي، لم يجد المغرب بدا سوى نهج استراتيجية ترمي تنويع شراكاته اخذا من هذا التوجه عنوانا عريضا لسياسته الخارجية في المرحلة الانية والمستقبلية وذلك عبر الانخراط الفعال مع مجموعة التكتلات الجهوية الوازنة في العالم.

قد تحرك بالفعل في هذا الاتجاه عندما تقدم مؤخرا بشكل رسمي بطلب الانضمام[7] للمجموعة الاقتصادية لدول غـرب افريقيا[8]. فالسياسة الجديدة للمغرب المتمثلة في تنويع الشراكات هي السمة البارزة في السياسة الخارجية مؤخرا. ولعل خطاب جلالة الملك امام القمة الخليجية ـــ المغربية بالرياض لتعبير واضح عن المضي قدما في هذا التوجه حيث جاء في الخطاب :

«(...) ومـن جهته فالمغرب رغم حـرصـه عـلـى الـحـفـاظ عـلـى علاقاته الاستراتيجية مع حلفائه، قد توجه في الأشهر الأخيرة نحو تنويع شراكاته، سواء على المستوى السياسي أو الاستراتيجي أو الاقتصادي. وفي هذا الإطار، تندرج زيارتنا الناجحة الى روسيا خلال الشهر الماضي، والتي تميزت بالارتقاء بعلاقاتنا الى شراكة استراتيجية معمقة ، والتوقيع اتفاقيات مهيكلة في العديد من المجالات الحيوية . كما نتوجه لإطلاق شراكات استراتيجية مع كل من الهند وجمهورية الصين الشعبية التي سنقوم قريبا، ان شاء الله ، بزيارة رسمية اليها (...)» .[9]

تلازما مع مضامين الخطاب الملكي، قام جلالة الملك مؤخرا بزيارات رسمية إلى مجموعة مـن الـدول الصاعدة والوازنة في المنطقة الأسيوية كالزيارة الملكية إلى الهند[10] وذلك في إطار أشغال المنتدى الثالث لقمة الهند ــ إفريقيا[11](أكتوبر2015) ثم زيارته الرسمية إلى روسيا الاتـحـاديـة[12](مـارس 2016)، فجمهورية الصين الشعبية [13](ماي 2016). وتماشيا مع سياسة الانفتاح على العالم هذه، عمل المغرب على تطوير علاقاته مـع المنظمات والمؤسسات الإقليمية والدولية ، ويمثل الانفتاح المغربي على القارة الاسيوية نموذجا قد يؤسس لخط عريض يمتد من أمريكا الجنوبية الى اقصى اسيا واسيا الوسطى وأستراليا [14].

ثالثا :دينامية المنطقة الاسيوية : صعود مستمر.

يشهد العالم تحولات جيوسياسية كبرى، فبعد ان كان القرن العشرون أمريكيا يـدور الحديث حاليا حول صعود آسيوي وتراجع أمريكي في القرن الواحد والعشرين، وبالتالي فالمنطقة الآسيوية اليوم باتت تحظى بأهمية قصوى من المنظور الجيوسياسي، وكذا الجيواقتصادي، حيث تعتبر منطقة شرق أسيا من المناطق الإستراتيجية في العالم، وهي دولا صاعدة كالصين، اليابان، كوريا، فهي حسب الكثيرين خيار استراتيجي . فهؤلاء يرون أن ثمة نظاما إقليميا آخذا في التبلور بهذه المنطقة سواء على المستوى الاقتصادي والاستراتيجي. ولعل هذا الصعود يفسر تحول القوى الصناعية الغربية نحو بناء العلاقات مع هذه الدول أو غيرها من دول آسيا في إطار العديد من التجمعات مثل « منتدى التعاون الاقتصادي لدول آسيا- المحيط الهادي APEC الذي تأسس سنة 1989 « ومؤتمر القمة الأوروبي الآسيوي [15] ASEM».

إن سرعة تحول مراكز القوة في العالم إثر الأزمة الاقتصادية وظهور تجمعات إقليمية والتي من بينها اتفاقية الشراكة الإستراتيجية الاقتصادية عبر المحيط[16] Trans-Pacific Strategic Economic Partnership Agreement المتفاوض عليها حاليا تشكل العديد من العناصر التي تمنح الفضاء الأسيوي شحنة قوية استراتيجية. لقد باتت آسيا - التي تعتبر أكبر تجمع سكاني على البسيطة - تمثل اليوم قطبا جديدا رئيسيا للاقتصاد الـدولي وذلـك بنسبة % 35 من الناتج المحلي الخام PIB، كما أصبحت تشكل ثلثالتجارة العالمية و % 35 من الاستثمارات الخارجية المباشرة تبعا لتقارير الصندوق النقد الدولي FMI والمنظمة العالمية للتجارة OMC و مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة و التنمية CNUCED.وستساهم بحوالي 55% من الثروة العالمية حسب مركز الدراسات المستقبلية للأخبار الدولية CEPII.

أخذت وتيرة الدينامية الاقتصادية في المجال الأسيوي تتسارع بفضل تصاعد قوة الصين وأخذها مكانا متميزا في النسق الـدولي[17] ، فحسب مؤسسات التوقع ، ستصبح الـصـين اول قوة اقتصادية عالمية في سنة 2040 متبوعة على التوالي بالولايات المتحدة الامريكية والهند حيث سينتقل سريعا مركز ثقل الاقتصاد العالمي نحو الشرق وسيكون القرن ال 21 قرنا اسيويا بامتياز. [18]

تعتبر آسيا «المنطقة الأكثر دينامية في العالم» (..) ولها تأثيرها المتزايد في الاقتصاد العالمي»[19] . كما صرحت بذلك مديرة صندوق النقد الدولي « كريستين لاغارد «. وفي نفس الاتجاه يرى الأستاذ «كيشور محبوباني» عميد « معهد لي كوان للسياسة العامة في سنغافورة « انه في التاريخ الحديث ، هيمنت أوروبا على المـاضي والـولايـات المتحدة على الحاضر. فيما ستكون آسيا هي المهيمنة على المستقبل اعتمادا أساسا على القوة الاقتصادية التي تعرفها منطقة شرق آسيا».

الهوامش

6 - للاطلاع على نص الخطاب الملك محمد السادس امام القمة الافريقية بأديس ابابا كاملا ، المرجو تصفح موقع البوابة الالكترونية للمملكة المغربية ، قسم الخطب والأنشطة الملكية. www.maroc.ma

7 - للإشارة فقد وافقت دول المجموعة الاقتصادية لغرب افريقيا مبدئيا على الطلب المغربي للانضمام اليها ذلك خلال القمة التي عقدتها المجموعة بتاريخ 04 يونيو 2017 بمنروفيا...

8 - تضم المجموعة الاقتصادية لدول غرب افريقيا التي تأسست في عام 1978 ، 15 دولة هي البنين وبوركينا فاسو والرأس الأخضر و الكوديفوار و غامبيا وغانا وغينيا بيساو وليبريا ومالي والنيجر ونيجيريا والسنغال وسيراليون والتوغو ..

9 - لقراءة نص الخطاب الملكي كاملاامام القمة الخليجية ـ المغربية بالرياض ، تصفح موقع البوابة الالكترونية للمملكة المغربية www.maroc.ma

10 - تعود العلاقات المغربية الهندية الى القرن الرابع عشر حينما زار ابن بطوطة الهند ، وتمثل كتاباته في تلك الفترة وثيقة ومصدرا تاريخية ذا أهمية كبيرة ، وخلال التاريخ المعاصر كان موقف الهند من رغبة المغرب في التحرر الفرنسي موقفا داعما ومساندا ، وبمجرد ما حصل المغرب على استقلاله سنة 1956 سارعت الهند الى الاعتراف به وتم إقامة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين سنة 1957.

11 - كانت القمة الأولى الهندية ـ الافريقية قد عقدت بنيودلهي عام 2008 ، واستضافت اديس ابابا القمة الثانية في عام 2011 .. اما القمة الثالثة فقد بنيودلهي في أكتوبر 2015 .. للمزيد من المعطيات حول اشغال القمة الهندية ـ الافريقية الثالثة ..الاطلاع على ..

INDIA-AFRICA FORUM SUMMIT, Reinvigorated Partnership – Shared Vision- ????

http://mea.gov.in/india-africa-forum-summit-2015/index.html

12 - أولى الاتصالات الرسمية بين المغرب وروسيا تعود الى 1778 حينما قام السلطان محمد بن عبد الله وامبراطورة روسيا كاثرين الثانية بابرام صفقات تجارية بين البلدين.

13 -جذور العلاقات المغربية الصينية تاريخية تعود الى العصور الوسطى وبالتحديد الى سنة 1336 حين زار الصيني وان دايوان المغرب في حين كان الرحالة ابن بطوطة في زيارة الى الصين سنة 1345 ، اما بخصوص العلاقات الدبلوماسية فقد أقيمت بصفة رسمية سنة 1958.

14 - مجموعة باحثين ، تجربة الإصلاح الدستوري بالمغرب ،مرجع سابق ، ص

15 -محمد اعلون ، محددات السياسة الخارجية المغربية تجاه بلدان شرق اسيا ، نموذج جمهورية الصين الشعبية ، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة ، كلية الحقوق بسلا ، السنة الجامعية 2008 2009 ، ص 18

16 - هو اتفاق تجارة حرة متعدد الأطراف يهدف الى زيادة تحرر اقتصاديات منطقة اسيا والمحيط الهادئ ، ويضم 11 دولة وهي : الولايات المتحدة الامريكية ـ كندا ـ استراليا ـ نيوزيلندا ـ ماليزيا ـ فيتنام ـ سنغافورة ـ بروناي ـ تشيلي ـ بيرو ـ المكسيك .. للمزيد من التفاصيل حول هذه الاتفاقية https://ar.wikipedia.org

17 - « Rapport Stratégique 2016 ,Panorama du Maroc dans le Monde , Les relations internationales du Royaume « ,IRES ,P 100.

18 - توفيق ملين و انيسة الازرق ، 50عاما من التنمية البشرية بالمغرب وافاق 2025 ، تقرير حول افاق عام 2025 من اجل تنمية بشرية مرتفعة ، الذكرى الخمسينية للاستقلال..ص 20

19 -كريستين لاغاردمديرة صندوق النقد الدولي ، آسيا الأكثر دينامية في العالم .. لقراءة الخبر الاطلاع على الموقع الالكتروني ، نشر بتاريخ 12 مارس 2016 .. http://www. alshahedpress.net/arabic/news-8923.htm آخر زيارة 28 يونيو 2016

Rihanat_No44 modif 1.indd 10-11 11/02/2018 23:57:20

ما يعزز هذا الاعتقاد أيضا حديث رئيس الوزراء الهندي «مانموهان سينغ « : « إن التطور الأكثر أهمية في القرن الحادي والعشرين سيكون صعود آسيا والحجة الأساسية التي تستند إليها الفرضية السابقة هي النمو الاقتصادي المنقطع النظير لأجـواء من آسيا مع النمور الآسيوية أولا ، وكوريا الجنوبية ، تايوان هونغ كونغ وسنغافورة ، والآن الصين والهند على وجه الخصوص ، ثم إن القوة الاقتصادية العملاقة اليابان تبدو وكأنها تستأنف الآن مسيرة تقدمها من جديد» .[20]

في الـواقـع ليس هناك من قارة اتسعت وتوطدت فيها مجالات التعاون الإقليمي بمختلف قنواته الاقتصادية والعسكرية والأمنية، مثلما شهدته قـارة آسيا التي انبثقت منها العديد من التكتلات السياسية والعسكرية ابتداء بكتلة عدم الانحياز، ومنظمة حلف جنوب شرق اسيبا ومجموعة 77 زائـد الصين، ورابطة جنوب آسيا للتعاون الإقليمي، و رابطة دول جنوب شرق آسيا التي يطلق عليها آسيان ASEAN اختصارا لاسمها بالإنكليزية Association of South East Asian Nations. [21]

المحورالثاني : المغرب ورابطة اسيان: علاقات واعدة

تشكل رابطة الأسيان قوة إقليمية سياسية ، اقتصادية وثقافية وبشرية كذلك في منطقة شرق اسيا ، حيث تسعى القوى الكبرى اليوم في الدخول معها في علاقات ، والمغرب بصفته بلدا ناشئا يتوجه اليوم نحو تعزيز انخراطه مع التكتلات الجهوية الواعدة شأن ذلك رابطة الأسيان.

أولا : رابطة الأسيان .

بعد انتهاء الحرب الباردة وقيام التجمعات الاقتصادية والإقليمية القوية ، ولاسيما بعد أن انتقل الاتحاد الأوروبي إلى مرحلة متقدمة بعد ماستريخت ، أدركت رابطة آسيان ضرورة الاستجابة إلى المتغيرات التي يشهدها العالم ، حيث أضحى التعاون الاقتصادي حجر الزاوية في العلاقات الدولية.[22]

تغطي مجموعة آسيان مساحة 4.4 مليون كيلومتر مربع ، بما يعادل 3٪ من المساحة الكلية للأراضي ، والتي تغطي المياه الإقليمية للدول الأعضاء في الرابطة ، ويبلغ عـدد سكان الـدول الأعضاء مجتمعة حوالي 617،000،000 نسمة ، أي 8.8٪ من سكان العالم . وفي عام 2012 ، نمي الناتج المحلي الإجـمالي الاسمي لجميع أعضاء المنظمة إلى أكثر من 2.3 تريليون دولار ، حيث كانت آسيان كيان واحد ، وأصبحت تحتل المرتبة السابعة كأكبر اقتصاد في العالم ، بعد الولايات المتحدة والصين واليابان ، وألمانيا ، وفرنسا ، والمملكة المتحدة.

وكان لظهور التكتلات الاقتصادية العملاقة علاقة بظهور رابطة الأسيان حيث املت مجموعة من المتغيرات الإقليمية والعالمية في منطقة جنوب شرق اسيا في ستينات القرن الماضي وظهور عدد من التكتلات الاقتصادية العملاقة نشأة رابطة الأسيان و بروزها كقوة اقتصادية متنامية في الساحة العالمية كتجمع يأمل بان تكون له كلمة في ومنافسة التكتلات الاقتصادية الأخرى كالاتحاد الأوروبي.

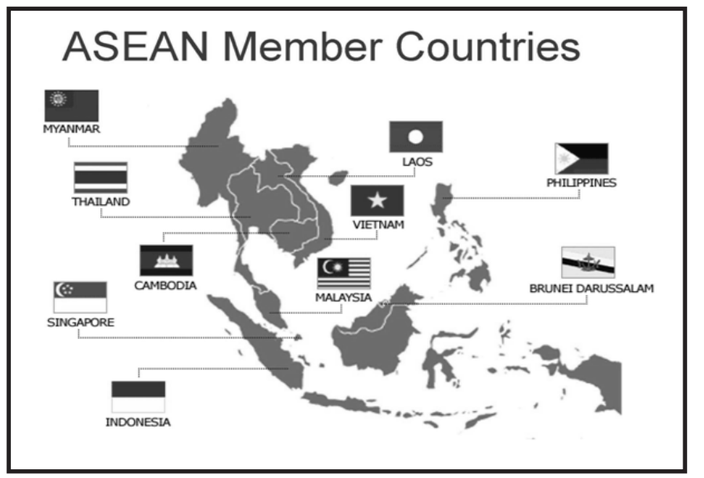

• نشأة الرابطة وتطورها :

شكل التوقيع على المعاهدة الخاصة بإنشاء رابطة أمم جنوبي شرقي اسيا (أسيان) في أغسطس 1967 الانطلاقة الفعلية لهذا التجمع كتجمع اقتصادي يروم مواجهة التهديد الشيوعي في جنوب شرقي اسيا و ضمت الـدول المؤسسة في ذلـك الـوقـت كـل مـن اندونيسيا وماليزيا والفلبين وسنغافورة وفيتنام والتحقت بهم سلطة بروناي عام 1984 وفيتنامعام 1995 ولاوس وميانمار عام 1997 و كمبوديا 1999 وظلت الأسيان محدودة الفاعلية الى ان شقت طريقها نحو تحقيق المزيد من الفاعلية والنجاعة على المستويين الإقليمي والـدولي وهو ما تحقق لها بالفعل في اجتماع بالي اندونيسيا عام 1976 بحضور رؤساء دول حكومات الدول الخمس المؤسسة وفي الاجتماع الثاني في كوالالمبور عام 1977 حيث شكل هذان الاجتماعان منعطفا حاسما في تاريخ الرابطة فقد فرضت القضايا السياسية و الأمنية نفسها على هذين الاجتماعين.

ومع بداية التسعينات بدأ التحول نحو انشاء شبكة مهمة من المؤسسات، اقتصاديا فقد تم بتاريخ 28 يناير 1992 تم التوقيع على اعلان سنغافورة لإنشاء منطقة للتجارة الحرة لدول الأسيان تسعى من خلالها الى تخفيض التعريفة الجمركية الى حدود الصفر في المائة وتشمل أهدافها تحرير التجارة في منطقة الأسيان واسقاط الحواجز الجمركية ناهيك عن جذب الاستثمارات الأجنبية وتكييف الرابطة مع مجموعة من الأوضاع الاقتصادية والدولية وشهد عام 2000 توقيع اتفاقية منظمة التجارة العالمية وبموجب هذه الاتفاقية ستعمل الرابطة على إزالة جميع الرسوم الجمركية على السلع التقنية وتطوير اتصالات الانترنت السريعة وفي زيـادة التجارة الالكترونية للدول الأعضاء.

بالموازاة مع الطفرة الاقتصادية التي حققتها دول رابطة الأسيان فقد شهد التنسيق السياسي والأمني تطورا ملفتا وذلـك عندما تم عقد منتدى امني بتايلاند وتم التطرق الى مجموعة القضايا الهامة كصناعة الصواريخ وانتشار الأسلحة النووية والصراعات في المحيط الهندي ، كما تمت مناقشة قضايا صراعية امنية وقد شارك في هذا المنتدى بالإضافة الى دول الرابطة دول أخرى مثل الهند والصين وكوريا الجنوبية وأستراليا.

•مبادئ الرابطة و عضويتها:

يمكن اجمال مبادئ رابطة الأسيان في اربع وهي :

أ : حل المنازعات بالطرق السلمية وعدم اللجوء الى استخدام القوة بين دول الرابطة.

ب : احترام استقلال كل دولة عضو وعدم التدخل في الشؤون الداخلية لأية دولة.

ج : حماية وتعزيز الامن الإقليمي للرابطة ودفع أي تهديد خارجي عن طريق التعاون العسكري بين دول الرابطة.

د : رفـض الـتـدخـل العسكري الأجنبي في حالة نشوب صراعـات في المنطقة.

وظهرت اشكال جديدة للعضوية في الأسيان فإلى جانب العضوية الكاملة هناك أيضا العضو المراقب و حضور دولي او ممثلين عن منظمات إقليمية ودولية للمشورة وللشراكة من جانب وللحوار الكامل والحوار القطاعي من جانب اخر ومن اجل بناء الثقة في منطقة اسيا الباسفيك وتطوير الدبلوماسية الوقائية.

الهوامش

20 - المستقبل العربي ،حلقة نقاشية ، الصعود الآسيوي والتراجع الأمريكي في الشرق الأوسط ، مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت ، 22 ماي 2013 ، ص 96

21 - د هدى ميتيكس ، السيد صدقي عابدين ، العلاقات العربية الآسيوية ، مركز الدراسات الآسيوية ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة 2005 ص 34

22 - د سامي عبد الله خصاونة ، العلاقات العربية ـ الآسيوية «نحو مستقبل مشرق « الجامعة الأردنية ، الأردن عمان 2003 ص 425

Rihanat_No44 modif 1.indd 12-13
11/02/2018 23:57:21

• **أهداف الرابطة :**

تهدف الرابطة الى تحقيق مجموعة من الأهــداف والغايات في مختلف المجالات سواء السياسية ، الأمنية او الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ..

وقــد وضــعــت منظمة الأســيــان استراتيجية اقتصادية بهدف تحقيق اقلاع وتنمية اقتصادية شاملة تستند الى:

أ : تحقيق مبدأ التخصص في الصناعة بهدف القضاء على عملية التنافس بين الدول الأعضاء وفقا لإمكانات وقدرات كل دولة ، فمثلا نجد خصص للفلبين مـشروع انتاج النحاس و سنغافورة مشروع انتاج مصل الالتهاب الكبدي وتايلاند مشروع انتاج الصودا.

ب : اتفاقية الأفضلية التجارية

ج : التكامل الصناعي : تم وضع خطة للتكامل الصناعي لتشمل عددا من المشروعات من ابرزها مشروعات صناعة السيارات ومعدات الاتصال والسماد

د : الحرص على الاحترام الكامل لحكم القانون في العلاقات بين دول الإقليم و الالتزام بمبادئ ميثاق الأمم المتحدة وذلك من اجل تدعيم السلام والاستقرار في إقليم جنوب شرقي اسيا.

و : تشجيع الأنشطة التعاونية والمساعدات المتبادلة في القضايا الخاصة بالمصالح المشتركة في المجالات الاقتصادية و الاجتماعية والثقافية والفنية و العملية والإدارية.

ز: تباذل المساعدات في مجالات التدريب والبحوث العلمية والمهنية والفنية والإدارية .

ح : تحقيق مشاركة اكثر فعالية في الاستخدام الأمثل للمواد الزراعية والمنتجات الصناعية وتوسيع نطاق التجارة البينية ودراسة مشكلات التجارة الدولية للسلع وتحسين سبل النقل ورفع مستوى المعيشة.

ط : تشجيع الـدراسـات الخاصة بإقليم جنوب شرقي اسيا.

ي : الحفاظ على درجة عالية من التعاون الإيجابي مع المنظمات الدولية والإقليمية القائمة.

•الهيكل التنظيمي للرابطة :

تتوفر رابطة على أجهزة متعددة ومتنوعة يمكن ذكرها في الاتي :

أ ـ مؤتمرات القمة : تعقد كل ثلاث سنوات ، وهي السلطة العليا لرابطة الأسيان وتضم رؤساء الدول والحكومات في الدول الأعضاء.

ب ـ المؤتمرات الوزارية ، تجتمع شهريا وتضم وزراء الشؤون الخارجية ..ويجتمع وزراء الاقتصاد والمالية كلما اقتضت الحاجة.

ج ـ اللجنة الدائمة : تجتمع كل شهرين وتتكون من وزيـر الشؤون الخارجية للدول المضيفة وسفراء الدول الأعضاء.

د ـ الأمانة العامة : تم انشاؤها في قمة جاكرتا عام 1976 ويختار امينها العام بشكل دوري من الأعضاء حسب الترتيب الابجدي كل ثلاث سنوات.

هـ ـ اللجان وهناك خمس لجان وهي لجنة الغذاء والزراعة والغابات ولجنة التمويل والبنوك ولجنة الصناعة ولجنة الطاقة ولجنة النقل .

وقــد كــان لـتـطـور الأهــداف والمتغيرات الحاصلة دور في تطوير الاطار التنظيمي العام ، فتم انشاء امانة عامة دائمة من اجل إقامة قنوات للتشاور وتنسيق المواقف بشكل مستمر

وتحقق بلدان الأسيان معدلات نمو مرتفعة سنويا تصل الى ما يقارب 5.8% ناهيك عـن الناتج المحلي الإجـمالي المرتفع لدول الرابطة كما يظهر الرسم البياني ادناه.

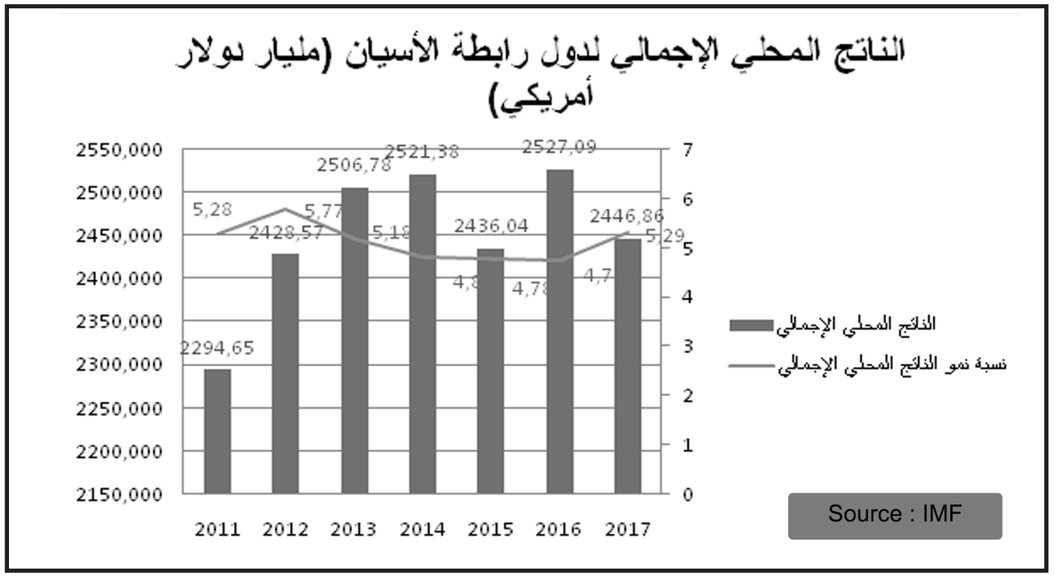

وهكذا يبدو جليا ان رابطة الأسيان اتخذت من العامل الاقتصادي أساسا لها لبناء التعاون الإقليمي وخلق المصالح المشتركة بين الدول الأعضاء على النحو الذي يدفع باتجاه المزيد مـن التعاون في المـجـالات الأخـرى الاجتماعية والثقافية وأخيرا السياسة الأمنية .[23]

ثانيا: المغرب واسيان : افاق واعدة للتعاون

تتجه الـعـلاقـات بـين المـغـرب ورابطة أسيان الى مزيد من التعاون على مختلف الأصـعـدة والمجالات فواقع الحال يعبر عن ذلـك، حيث تميزت السنة الفارطة بحدثين بارزين سيدفعان مما لاشـك فيه في اتجاه تطوير العلاقات بين الطرفين.

•احداث لجنة دول رابطة الأسيان بالرباط

أنشأت دول جنوب شرق اسيا لجنة للتنسيق بالرباط[24] في فبراير 2016 ، بهدف تقوية العلاقات مع المغرب في المجالات السياسية ، الاقتصادية والاجتماعية والثقافية كما تطمح الى تقوية علاقات التعاون مع باقي دول العالم الثالث ، وتعزيز الهوية الاسيوية في المغرب وباقي الدول.

وشهدت الرباط احتفال التمثيليات الدبلوماسية لدول جنوب شرق اسيا ، المعروفة اختصارا بأسيان بتأسيس رابطة دبلوماسية لها في الرباط بتاريخ .. حيث تسعى هذه الدول الى توطيد علاقات التعاون مع المغرب واحداث التقارب مع المغرب من خلال انشاء لجنة للرابطة للمغرب و في تصريح صحفي قال سفير جمهورية اندونيسيا بالمغرب ان « دول جنوب شرق اسيا في توافق تام مع السياسة التي يعتمدها المغرب مضيفا ان « اجتماع التمثيليات الدبلوماسية لدول جنوب شرق اسيا نظم لشرح اهداف رابطة الأسيان» وأوضح السفيرالاندونيسي ان « هناك تنسيق وثيق بين دول الرابطة والمغرب ومجالات مفتوحة في هذه الدول والمغرب وان هدفه يتمثل في انشاء لجنة مشتركة لتعزيز « أسيان « بالمغرب».

وفي نفس السياق تحدث السيد محمد المالكي مدير الشؤون الاسيوية ودول اوقيانوسيا بـــوزارة الشؤون الخارجية و التعاون عن« تطلع المغرب لخلق سوق مشتركة مع دول « أسيان « مبرزا ان المغرب تربطه علاقات تعاون متميزة مع دول جنوب شرق اسيا بهدف دخوله لسوق القارة الاسيوية وقال ان « المغرب ودول جنوب شرق اسيا نقط التقاء حضارية ، من الممكن استثمارها لتشكل قطبا ثقافيا مشتركا « لتتسع

الهوامش

23 -الدكتور خليل حسن ، موسوعة المنظمات الإقليمية القارية ـ الجزء الثاني ، منشورات الحلبي الحقوقية ، الطبعة الأولى بيروت ـ لبنان 2013 ص60 ص 65.

24 -حري ان اول احتفال بتأسيس مجموعة رابطة الأسيان بالمغرب يرجع الى سنة 2011 ،وتم خلاله حفل رفع راية هذه المنظمة بالمغرب بالسفارة الاندونيسية.

Rihanat_No44 modif 1.indd 14-15 11/02/2018 23:57:22



دائرة الدبلوماسية للمغرب ، خاصة ان له حضورا وازنا في هيئة الأمم المتحدة ومجموعة دول عدم الانحياز والعديد من التكتلات الدولية ».[25]

• المغرب يوقع على وثائق انضمامه الى معاهدة الصداقة والتعاون مع دول رابطة الأسيان

تم التوقيع بتاريخ 06 شتنبر2016 بمدينة فيينتيان عاصمة لاووس، على وثائق انضمام المغرب إلى معاهدة الصداقة والتعاون لرابطة دول جنوب شرق آسيا.حيث وقع وزراء خارجية الـدول الأعضاء في الآسيان إلى جانب السيد بوريطةالوزير المنتدب السابق ووزيـر الشؤون الخارجية والتعاون الدولي الحالي على وثائق انضمام المغرب، وذلك على هامش أشغال القمتين ال 28 وال 29 لرابطة دول جنوب شرق آسيا (آسيان) اللتين انعقدتا من 6 إلى 8 شتنبر 2016بفيينتيان.

وأعربت الـدول الأعضاء في رابطة جنوب شرق آسيا (آسيان)، عن ارتياحها لانضمام المغرب إلى معاهدة الصداقة والتعاون للرابطة. وأكدت في بلاغ صدر عقب توقيع المغرب على وثائق انضمامه إلى المعاهدة، «أن هذه الخطوة تعزز مكانة معاهدة الصداقة والتعاون للرابطة باعتبارها مدونة سلوك تؤسس للعلاقات بين الدول وإسهاما في تعزيز السلم والاستقرار اقليميا ودوليا».



والجدير بالذكر ان مسلسل انضمام المغرب لمعاهدة الآسيان كان قد انطلق سنة 2014، بتوجيهات من الملك محمد السادس، عبر عمل متواصل من أجل تعزيز العلاقات مع الدول الأعضاء في الرابطة، توجت بموافقة هذه الدول على انضمام المغرب، فالعلاقات القائمة بين المغرب ودول الآسيان جيدة ومتميزة ينظمها إطار قانوني جد متطور وتعززها رغبة في تنسيق المواقف في عدد من المحافل الدولية كقمة دول حركة عدمالانحياز وقمة الدول الفرانكفونية ومجموعة ال 77 زائد الصين .[26]

• المغرب ودول الأسيان : رؤية مشتركة وافاق واعدة

تعتبر المـبـادئ التي تقوم عليها الاسيانمتفقة والمنهج الذي يسير عليه المغرب في سياسته الخارجية، فدول الاسيان تتعامل ببراغماتية كبيرة بفضل تغير طبيعة النظام الدولي التي ساهمت في تحول سياسات هذه الدول . حيث تبنت دول الرابطة ، كلها، مواقف بناءة بخصوص قضية الصحراء المغربية و أكـدت، في عدة مناسبات، تفهمها للموقف المغربي ودعمها للجهود التي تبذلها المملكة للتوصل إلى حل نهائي ودائم لهذه القضية.

ويتطلع المغرب إلى تعزيز التعاون مع رابطة الآسيان عبر عدة محاور من بينها :

1. مواجهة التحدي الأمني ومحاربة الإرهاب.
2. ومواجهة ظاهرة التغيرات المناخية.
3. تطوير التعاون الاقتصادي عبر الرفع من المبادلات التجارية باعتبار الفرص التي تتيحها السوق المشتركة للآسيان (650 مليون نسمة) أمام المنتوجات المغربية.
4. تعميق المشاورات السياسية بالإضافة إلى تطوير برنامج عمل مشترك لتنسيق التعاون بين المغرب والرابطة كنموذج للتعاون جنوب ـــ جنوب.

وحـول اهمية انضمام المغرب الى اتفاقية الصداقة والتعاون لبلدان جنوب شرق اسيا يرى الخبير في الشؤون الاستراتيجية الأستاذ محمد بنحمو ان "المغرب منخرط في استراتيجية جديدة ومتجددة من اجـل تنويع شراكاته والحضور في مناطق ظلت بعيدو عن الأهـداف الكبرى والاولية للمغرب ، هذا يؤكد ان المغرب يفضل الانخراط في علاقات ذات بعد متعدد الأطراف و الحضور في اطار منظمات إقليمية وازنة كما هو الحال بالنسبة لاسيان التي تعتبر رابطة لدول ناشئة لها دور في المنطقة الاسيوية والملاحظ ان هذا الفضاء اصبح في الوقت الراهن محط اهتمام الكثير من القوى الكبرى والمتوسطة وانه يعتبر الان في قلب المرجلة القادمة والتي ستجعل من منطقة شرق اسيا مستقبل القرن 21 والمجال الـذي يتحول فيه المدار الاستراتيجي وكذلك توجه انظار العالم وبالتالي هذا يؤكد رغبة المغرب في ان يرقى الى مصاف الدول الناشئة وان يستفيد من خبرات دول رابطة الاسيان التي تحقق نجاحات اقتصادية وتنموية كبيرة وتسير بخطى حثيثة لان تتحول الى قوى صاعدة وبالتالي فعلاقات المغرب بدول رابطة أسيان هي علاقات مفيدة للطرفين ".[27]

•خاتمـــة

ختاما فانضمام المغرب إلى معاهدة الصداقة والتعاون لرابطة دول جنوب شرق آسيا (آسيان) يندرج في إطار رؤية الملك محمد السادس الهادفة إلى تنويع شراكات المغرب، على جميع المستويات السياسية والاستراتيجية و الاقتصادية. فقد حرص الملك محمد السادس، خلال السنوات الأخيرة، على أن يتبنى المغرب مبادرات للانفتاح على فضاءات سياسية واقتصادية جديدة، وأن يعمل على توطيد شراكاته الاستراتيجية وتنويعها، كإحدى المـحـاور الأساسية لسياسته الخارجية.

اليوم ونحن نعيش في عالم متعدد الأقطاب في شقه الاقتصادي يتميز بإنشاء تجمعات جهوية قوية (الاتحاد الأوروبي ، اتفاقية التبادل الحر لدول شمال أمريكا ، الميركوسور، أسيان) لن يكون ثمة أي مستقبل للدول المنعزلة[28]، يتعين على المغرب علاوة على توطيد شراكاته مع محركات النمو العالمي ـ و ربط علاقات اقتصادية وتجارية قوية مع البلدان الناشئة والصاعدة.

وارتباطابإشكال بناء الاتحاد المغاربي فعلى المغرب ان يواصل محاولاته من اجلتطوير العلاقات المغاربية في اطار هذا الاتحاد ،فبالرغم من المشاكل التي يتخبط بهافهو يظل خيارا استراتيجيا لا محيد عنه وعمقا استراتيجيا للمغرب وحقيقة جغرافية حتمية لا تتغير، ومصيرا مشتركا لدول وشعوب المنطقة المغاربية ، لذا فإننا نربان توجه المغرب نحو تنويع شراكاته لا يعني بالضرورة التخلي عن حلم الوحدة المغاربية. ■

الهوامش

25 -انبعاث امة – الجزء الواحد و الستون– القسم الأول ، منشورات القصر الملكي ، المطبعة الملكية ـ المشور السعيد ـ الرباط ص 490-489.

26 -للاطلاع على التفاصيل ، اقرأ خبر ..المغرب يوقع بلاووس على وثائق الانضمام إلى معاهدة الصداقة والتعاون لرابطة دول جنوب شرق آسيا ، موقع وزارة الشؤون الخارجية والتعاون الدولي www.diplomatie.ma

27 -للمزيد ، انظر حوار هاتفي مع الاستاد محمد بنحمو حول ابعاد توقيع المغرب على الانضمام الى معاهدة الصداقة والتعاون لرابطة الأسيان ـ الموقع الالكتروني لقناة ميدي1تيفي www.medi1tv.com اخر زيارة بتاريخ 2017/06/15.

28 -توفيق ملين و انيسة الازرق ، مرجع سايق ، ص 21.

Rihanat_No44 modif 1.indd 16-17 11/02/2018 23:57:22

النزاع السوداني في ضوء القانون الدولي الإنساني: حالة دارفور

عبدالهادي قاسمي

•مقدمة :

وُضـع الـقـانـون الــدولي الإنـسـاني ليتعامل مع الــدول، التي تدخل في نزاعات مسلحة فيما بينها باستخدام وسائل وأساليب قتالية تقليدية إلا أنه في الوقت الراهن ظهرت تنظيمات مسلحة وبأشكال ومسميات وانتماءات مختلفة، انخرطت في نزاعات مسلحة غير دولية (داخلية) مع الــدول أو مع بعضها البعض، مستخدمة وسائل قتال حديثة وأكـثر فتكا بالعنصر البشري وبيئته المحيطة، زيادة على اتساع فوارق القوة والتقدم التكنولوجي بين الدول ذاتها، لذلك فمن الضروري أن يتكيف القانون الــدولي الإنساني من حيث النصوص وآليات التطبيق الميدانية مع كل هذه المستجدات .1

إن مثل هـذه الـنـزاعـات تساهم في انقسام الـدول وتـضرر المجتمعات ومعاناة الإنسانية، كما أن غياب احترام التشريعات الوطنية والدولية، وانهيار القيم والأخلاق ومكونات المجتمع المدني، وتقصير السلطات في إنفاذ القوانين، وانـدلاع الأزمـات الإنسانية وتراكمها بشكل كثيف، وغياب الحد الأدنى من التجهيزات الأساسية الصحية والتعليمية، والنقص الـحـاد في المـواد الغذائية، واندلاع جحافل الهجرات نحو وجهات داخلية وخارجية آمنة، والتضييق على السكان أثناء اللجوء، يساهم حتما في تفريخ وتكاثر جماعات مسلحة متنافرة ومتعارضة تدفع بالقوات الحكومية إلى التدخل للردع والإخماد مما يؤدي إلى المواجهات المضادة، وانفجار العنف المسلح في شتى مظاهره، ويؤثر ذلك مباشرة على الوضع الإنـسـاني برمته ويؤججه، ويطول عمر النزاع، وما مثال دارفور السوداني ببعيد، وإذا كان كذلك، فما هي طبيعة هذا النزاع وتاريخه؟ ما هي مخرجاته وأثـره على الوضع الإنساني؟ ما حقيقة التشريع الدولي الإنساني وأثره في نزاع دارفور؟ ما مصير هذا النزاع وحالته الراهنة؟ وما هو دور القضاء الدولي في هذا النزاع؟ إن مثل هذه النزاعات تساهم في انقسام الدول وتضرر المجتمعات ومعاناة الإنسانية، كما أن غياب احترام التشريعات الوطنية والدولية، وانهيار القيم والأخلاق ومكونات المجتمع المدني، وتقصير السلطات في إنفاذ القوانين، وانـدلاع الأزمـات الإنسانية وتراكمها بشكل كثيف، وغياب الحد الأدنى من التجهيزات الأساسية الصحية والتعليمية، والنقص الحاد في المواد الغذائية، واندلاع جحافل الهجرات نحو وجهات داخلية وخارجية آمنة، والتضييق على السكان أثناء اللجوء، يساهم حتما في تفريخ وتكاثر جماعات مسلحة متنافرة ومتعارضة تدفع بالقوات الحكومية إلى التدخل للردع والإخماد مما يؤدي إلى المواجهات المضادة، وانفجار العنف المسلح في شتى مظاهره، ويؤثر ذلك مباشرة على الوضع الإنساني برمته ويؤججه، ويطول عمر النزاع، وما مثال دارفور السوداني ببعيد، وإذا كان كذلك، **فما هي طبيعة هذا الـنزاع وتاريخه؟ ما هي مخرجاته وأثره على الوضع الإنساني؟ ما حقيقة التشريع الدولي الإنساني وأثره في نزاع دارفور؟ ما مصير هذا النزاع وحالته الراهنة؟ وما هو دور القضاء الدولي في هذا النزاع؟** للإجابة على هذه الإشكالية سيتم تقسيم الموضوع إلى محورين؛ المحور الأول: طبيعة النزاع في السودان، والمحور الثاني: تطبيق القانون الدولي الإنساني في هـذا الـنـزاع، كما سيتم الاستعانة ببعض المناهج حتى يتسنى لنا الإحاطة بالموضوع وسبر أغـواره ومقاربته من زوايا مختلفة، ولعل من بين أهم المناهج التي يمكن أن تساعدنا على ذلك المنهج التاريخي بحكم ما يوفره البعد الزمني لتدارس الموضوع، والوقوف عند أهم مراحله، واستخلاص أهم النتائج التي وسمت النزاع وتأثيراتها، إضافة إلى المنهج القانوني لتأطير النزاع، وموقعه في التشريعات الداخلية، والتشريعات الدولية من الزاوية الإنسانية، ثم المنهج التحليلي لـتـدارس الـوضـع الإنـسـاني، نظرا لطبيعة الموضوع، حيث النزاع في هذه الوضعية جاء كنتيجة وليس سببا مما زاد من تفاقم الأوضـاع الإنسانية بالإقليم.

-1 واقـع الـــنزاع الـسـوداني وطبيعته

ساهمت مجموعة من العوامل في انـدلاع الـصراع السوداني وتأجيجه سواء بين شماله وجنوبه، أو داخل المناطق المتنازع بشأنها بعد الانفصال، و لعل من بين أهم هذه العوامل نجد الاختلافات الدينية، الإثنية واللغوية، والـسـيـاسـات الاسـتـعـمـاريـة، وكذلك سياسات الحكومات السودانية المتعاقبة، إضافة إلى الدور الإقليمي الذي مارسته بعض دول المنطقة، و بعض الأطراف الدولية.[2]

إن حرب السودان عادة ما توصف بأنها صدام بين الشمال العربي المسلم والجنوب الإفريقي الأسود ذو الاعتقاد المسيحي والوثني[3] ، ولقد ساهمت هذه الخلفية بشكل جلي في اندلاع مجموعة من النزاعات داخل البلد، نتج عن إثرها انفصال الجنوب، واستمرار النزاع في دارفور.

-1 1 تاريخ وطبيعة الـنزاع في السودان

تتداخل مجموعة مـن العوامل لتشكل بؤرة لـشرارة النزاع بالسودان بصفة عامة، وبدارفور بشكل خاص، حيث تغذي النعرة الطائفية هذا الصراع، إضافة إلى العامل الجغرافي وانعكاساته على الساكنة، وأهمية ذلك اقتصاديا، حيث شساعة المساحة التي تقدر ب 510.000 كيلومتر مربع، أي ما يعادل خمس مساحة السودان، ويعادل مساحة فرنسا[4] ، إضافة إلى موارد مائية ومساحات رعوية، وساكنة بحوالي 6 ملايين نسمة[5]، تعرف تنوعا إثنيا وعرقيا ولغويا، كل هذه المكونات إضافة إلى انتشار الأسلحة وضعف الإدارة الحكومية، وغياب

الهوامش

1 - عمر روابحي، تحديات تطبيق القانون الدولي الإنساني أثناء النزاعات غير المتماثلة، المجلة الدولية للقانون، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة البويرة الجزائر،2015 ص: 01.

2 - قضية الجنوب السوداني، افتتاحية، مجلة قراءات افريقية، العدد الثامن أبريل يونيو 2011، ص 02، العمود الأول

3 - Abdel Ghafar .M. Ahmed," Multiple Complexity)1(Prospects for Reconciliation Unity. The Sudan Conundrum" in Nhema, Alfred and Paul Zeleza (eds.), Roots of Africa conflicts ;the Causes and Costs Athens, OH, Ohio University Press ,2008. p78

4 - مستاك يحيى محمد لمين، قضية دارفور وأبعادها الإقليمية والدولية، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في العلوم السياسية تخصص التنظيمات السياسية والعلاقات الدولية، دراسة من 2003 إلى 2015، كلية الحقوق والعلوم السياسية قسم العلوم السياسية مدرسة الدكتوراه في القانون والعلوم السياسية، جامعة ميلود معمري تيزي وزو، ص 18.

5 - كمال الدين عوض الجزولي، حقيقة دارفور، الموقع الإلكتروني الكتب، ص 34 www.alkottob.com

Rihanat_No44 modif 1.indd 18-19 11/02/2018 23:57:23



التنمية، وتعدد الانقسامات السياسية، وهاجس السيطرة على المواقع، واستمرار الأزمـة، جعل من هـذا الإقليم محل نزاع مسلح دائم، وموضعا لكل المعاناة الإنسانية.

1-1-1 جـــذور الـــــنزاع في السودان

اندلعت الحرب بين حكومة السودان وبين الحركة الشعبية لتحرير السودان - التي انتهت مؤخراً- في العام 1983م على إثر انهيار اتفاقية أديس أبابا التي وقعت في 1972 م [6]. وتتمثل الأسباب الرئيسية التي أدت إلى انـدلاع هذه الحرب في النزاع حول المناطق الرعوية الجنوبية الخصبة، والتي ينتمي أغلب سكانها إلى قبيلة « الدنكا» الإفريقية المختلفة كل الاختلاف عن عرب الشمال من حيث الجنس والدين والعادات، لقد كان السلام يعم المنطقة، كما أنها كانت بمثابة جسر يربط بين الشمال والجنوب، وبعد استقلال السودان عن بريطانيا عام 1956 أصبح هذا الإقليم في حالة من التوتر السياسي، ومحل نزاع دموي بين الشمال والجنوب، نتج عنه مقتل أكثر من مليوني شخص، وامتد لمدة خمسين عاما.

لكن الـشرارة الأولى للنزاع الحالي انطلقت بين قبيلة « الـزغـاوة» ذات الأصول الإفريقية و» أولاد زيد» ذوي الأصول العربية في عام 2001 م[7] ، حيث قتل عدد كبير من كلا الطرفين في هذا الحادث، وقد أوصت لجان الصلح بين القبيلتين بدفع الديات للطرفين، إلا أن مجموعة من عناصر قبيلة «الزغاوة» رفضت الصلح وتمردت .[8]

عـلاوة على ذلك فقد كان لغياب التنمية و كـذا الإحساس بالتهميش دورا بارزا في استمرار النزاعات المسلحة في مختلف المناطق إلى درجة مطالبة الجنوب السوداني باستقلاله الذاتي، إلى أن تم التوصل إلى اتفاقية نيفاشا في عام 2005.[9]

في يناير 2011 م، أجـرى جنوب السودان استفتاء لتقرير البقاء مع حكومة السودان أو الاستقلال عنها بموجب اتفاق السلام الشامل، ووفقا للجنة الاستفتاء لجنوب السودان فإن 98,8 % من الأصـوات كانت لصالح الانفصال وفي فبراير 2011 م ، وافق الرئيس السوداني عمر البشير رسمياً على قبول نتائج الاستفتاء، كما فعلت ذلك الأمم المتحدة، والاتحاد الأفريقي، والاتحاد الأوروبي، والولايات المتحدة الأمريكية، ودول أخرى، وفي 9 يوليوز 2011 م، أعلن جنوب السودان استقلاله رسميا .[10]

بعد الاستقلال تقرر أن تتبع الشمال ثلاثة أقاليم هي دارفور والنيل الأزرق وجنوب كردفان، وقد اتفق السودان وجنوب السودان على تقاسم عوائد النفط التي تنتجها حقول نفط موجودة في الجنوب، لكن بعضها يمتد في باطن الأرض ليدخل في حـدود الشمال، إلا أن نزاعا مسلحا نشب حول ذلك بين الطرفين مع تبادل الاتهامات لتستمر المواجهات العسكرية.

يستمر النزاع بين الجانبين لوقت طويل، مع أن الأمـم المتحدة دعت حكومة كـل مـن الـسـودان وجنوب السودان إلى وقف أعمال العنف وتنفيذ الاتفاقيات التي تم التوصل إليها بينهما حول الأمن ومراقبة الحدود المتنازع عليها .[11]

لقد كانت تتوفر للسودان بعد الاستقلال فرصة تسوية الأزمة الداخلية قبل التدويل، من خلال مشروع الدولة الوطنية، لكن إخفاقه وعدم قدرته على تحقيق الاندماج القومي بين مختلف مكونات الجسد الاجتماعي، وتأكيد تقاليد المواطنة والهوية الوطنية الجامعة، وعـدم انتهاج سياسات التهميش أو الإقصاء لأي طرف من الأطـراف، كان عاملا رئيسيا في تقويض وحدة البلاد، وتقسيم الـسـودان، مع عدم التحكم في المناطق التي بقيت تعرف نزاعات، خاصة دارفور والتي يصعب التكهن بما قد تؤول إليه الأوضاع في هذا الإقليم، إن لم يتم احتواؤه ومعالجته في القريب العاجل، سيساهم حتما في استمرار تفتيت وحدة السودان، حيث طبيعة هذه الصراع ليس بناء دولة السودان وإنما السعي لتفكيكها من خلال تحين فرصة فشل سلطة الدولة في الاستجابة لتحديات المشاركة السياسية والمجتمعية للمكونات الاجتماعية ومن ثم السيطرة على المواقع التي تترهل فيها قوة الدولة، وبالتالي إيجاد موطأ قدم للعمل والنمو والانتشار .[12]

1-1- 2 طبيعة النزاع المسلح في السودان، حالة دارفور

إن النزاع الموجود الآن في دارفور هو نـزاع ليس بين دولـتـين، أي ليس بنزاع مسلح دولي كما تشير إلى ذلك الاتفاقيات الدولية، ولكنه نزاع يدور رحاه بين الحكومة ومجموعتين متمردتين ومسلحتين، حيث يسيطر المتمردون على بعض المناطق بشكل فعلي، كما أن هذا النزاع ليس باضطرابات أو توترات داخلية، أو أعمال شغب، أو أعمال عنف

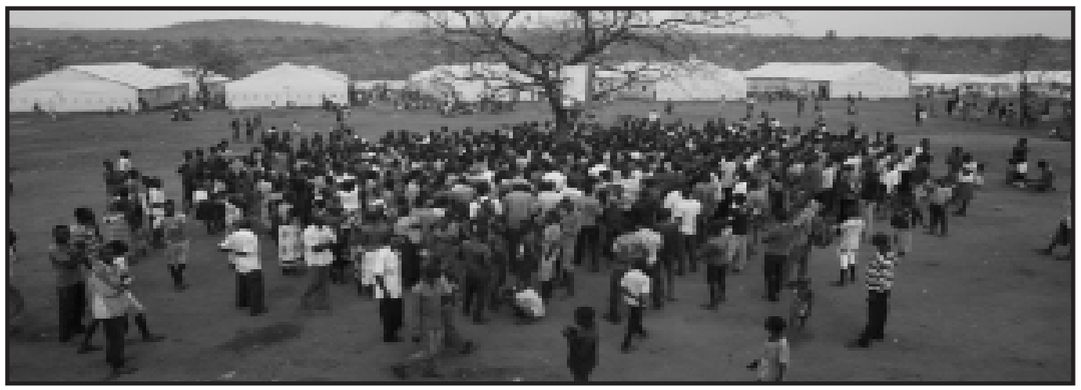

الهوامش

6 - https://ar.wikipedia.org

7 - د. الوليد سيدي علي، المنظمات الإنسانية الأجنبية بدارفور بين الإنسانية والسياسة، مجلة قراءات إفريقية العدد 07، المنظمات الإنسانية الغربية وإفريقيا، يناير مارس 2011 العدد 07 الصفحة 86، العمود الثاني الفقرة الأخيرة

8 - بدايات الأزمة وما بعدها. انظر David Hoile : Darfur Perspective, London Sudanese Public Affairs Council 2005 P.8.

9 - تفاق نيفاشا: هي الاتفاقية التي أوقفت أطول حرب أهلية في أفريقيا وقد تم توقيعها بواسطة حكومة السودان بقيادة حزب المؤتمر الوطني الذي يتزعمه الرئيس السوداني عمر البشير والطرف الآخر هو الحركة الشعبية لتحرير السودان بقيادة جون قرنق، ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

10 - مولوجيتا جيبرهيوت وجيتاشو زيروا، نحو غاية مشتركة : الأساليب التعاونية لحل الصراعات في أفريقيا ورقة عمل مقدمة من معهد الدراسات الخاص بقضايا الأمن والسلم،جامعة أديس أبابا، 5 فبراير 2013م.

11 - أحمد الدواس، أسباب الصراع السياسي في السودان، 2012/04/19، 11:12 م http://alwatan.kuwait.tt/article

12 - أحمد زكي عثمان، ما بعد كلاوزفيتز، الخيال السياسي، الحروب الجديدة: استراتيجية للعنف المطلق، مجلة الإنساني، العدد 59، اللجنة الدولية للصليب الأحمر، صيف 2015. ص 17.

Rihanat_No44 modif 1.indd 20-21 11/02/2018 23:57:23

منفردة ومتفرقة، بل هو عبارة عن وجود مجموعات مسلحة منظمة تحارب السلطات المركزية مع سيطرتها على جزء من الإقليم، ووجود قتال مستمر وطويل الأمد، لذلك ففي نظر القانون الدولي الإنساني، وحسب المادة المشتركة الثالثة (3) من اتفاقيات جنيف، وكذلك القانون الدولي الإنساني العرفي، فالنزاع الدائر بدارفور بالسودان، هو عبارة عن نزاع داخلي .13

إن مصطلح النزاع الداخلي هو مصطلح حديث النشأة، ولم يرد ذكره في كتب السابقين من فقهاء القانون الدولي التقليدي لكن ذلك لا يعني عدم وجود هذا النوع من النزاعات ولكن ذلك يأخذ تسميات أخرى غير المعروفة الآن .

يقصد بالنزاع المسلح غير الدولي أو الحرب الأهلية، ذلك الصراع المسلح الدائر بين القوات المسلحة الرسمية للدولة، وجماعات مسلحة منظمة، لها ركيزة إقليمية تمارس فيها سيادة فعلية، كما أنها تسعى إلى تحقيق أهداف مختلفة مثل: الانفصال بجزء من إقليم الدولة، أو التحرر من قبضة دولة أجنبية .15

إن طبيعة هذا الصراع ليست وليدة الحرب الأهلية أو الحركات المسلحة التي بلغ عددها نحو 26 حركة، سبق أن وقّع بعضها اتفاقات سلام مع الحكومة ورفض بعضها الآخر، واختار مواصلة القتال، ولكن يعود فتيل الصراع الملتهب إلى تدفق السلاح وانتشاره، بسبب الصراعات الإقليمية، مما أدى إلى ظهور حركات مسلحة متمردة أدت إلى استقطاب حاد للقبائل بين الحكومة والحركات، ونقل الصراع إلى مراحل متقدمة ومعقدة ، حيث عبأت الحكومة ميليشيات محلية لمواجهة حركة المتمردين، إذ بات الوضع خارج نطاق السيطرة وأصبحت سياسة التطهير العرقي قائمة بشكل جلي، حيث شاركت بعض الجماعات في الهجمات مدعومة بطائرات حكومية.

عليه، فعندما يصل نزاع مسلح غير دولي إلى مستوى متواصل، وجب معاملة الجانبين على حد سواء كأطراف متحاربة، كما أن بإمكان الحكومة الأم أو دولة أخرى أن تعلن اعترافها بالمتمردين كطرف متحارب، ويلاحظ «أوبنهايم» أن حركة العصيان بينما قد لا تقدر قانونا على شن حرب، فإن قدرتها الفعلية على القيام بذلك تفسر لماذا يمكن أن تصبح طرفًا متحاربا، ويمكن لأي دولة أن تعترف بحركة العصيان كقوة محاربة ما دامت تفي بالمعايير الثلاثة الآتية:

- تسيطر على جزء من إقليم الحكومة «الشرعية»؛
- تقيم «نظام» حكومة خاص بها؛
- تقاتل وفقا لقوانين الحرب.

ذهب «لاوترباخت» إلى وجود أربعة معايير، فبالإضافة إلى المعايير التي سبق ذكرها، ينص المعيار الرابع على أنه يجب أن تتوفر ظروف تجعل من الضروري بالنسبة للدول الخارجية أن تحدد موقفها من خلال الاعتراف بحالة الحرب، وهو ما يعد شرطا إضافيًّا حقيقيًا لتلك المعايير المشار إليها، لقد عالج القانون الدولي الحرب الداخلية باعتبارها حربا بنفس طريقة معالجته أساسا للحرب بين الدول ذات السيادة، وعند الاعتراف بالأطراف من غير الدول في نزاع مسلح غير دولي باعتبارها أطرافا محاربة، فإنها تخضع بالتالي للقانون الدولي التقليدي، وتعامل أساسا كدولة في حالة حرب، وتتمتع بنفس الحقوق، وتلتزم بنفس الواجبات .18

1- 2 الوضع الراهن في السودان

يعرف السودان حاليا وبعد الانفصال كذلك مجموعة من التغيرات، وتظل الأزمات السياسية المتلاحقة هي السمة الرئيسية والمميزة للفترة الانتقالية منذ انطلاقها في يوليو 2005، في أعقاب إبرام اتفاقية السلام الشامل بين حكومة السودان ممثلة في حزب المؤتمر الوطني، والحركة الشعبية لتحرير السودان في يناير 2005، كما أن هناك انشقاقات وانقسامات داخل الأحزاب السياسية، بما فيها الحزب الحاكم والحركة الإسلامية، والحركات المسلحة، مع تنامي الولاء القبلي والعرقي، وظهور الجماعات الإسلامية وتصاعد نشاطاتهم العنيفة والمرعبة.

ويتجلى هذا الاستقطاب السياسي الحاد في النزاع المسلح وتدهور الوضع الأمني في دارفور بوتيرة متسارعة، إضافة إلى الحرب الدائرة في جنوب كردفان والنيل الأزرق، وتردي الأوضاع وتفشي الفساد، وشبح الحرب يلوح في الأفق بين السودانيين .19

1 -2-1 الوضع السياسي في السودان

يمثل السودان نموذجا مصغرا من قارة إفريقيا، فقد حظي بموقع وسط في إفريقيا ذات العوالم الثقافية المتعددة، وتعكس التغيرات أو التطورات التي تجري في السودان، ما يحدث في إفريقيا عموما، وبينما تقدم التركيبة الداخلية، للسكان السودانيين، نموذجا مصغرا لإفريقيا: طبيعيا وثقافيا وإثنيا، فإن فرادته تواجه ذلك بهامشيته السياسية المتعددة، وهذا يضع السودان داخليا في وضع مربك وحرج جدا، حيث ترغب نخبته المسيطرة في الحفاظ على الوضع واستمراريته خدمة لمصالحها، وترغب المكونات الأخرى في تحقيق ذاتها ومزاحمة الحكومة الحالية على المسؤولية والقيادة.

إن هاتين الرغبتين المتعارضتين، تقفان في قلب الصراع السياسي، الذي يكمن في مركز تحلل الدولة السودانية واتجاهها نحو المزيد من الانقسامات . إن ممارسات الحكومة لا تقدم صلاحيات حقيقية للأحزاب السياسية، بل إن التحرك الحكومي تجاه الأحزاب يأخذ طابعا شكليا، مما ساهم في تراجع مصداقية الحكومة والأحزاب معا، كونه لا يفضي إلى تغيير في المعادلة السياسية الداخلية، كما لا يفضي إلى أي نوع من أنواع التداول على السلطة، ولا يساهم بالتأكيد في خفض مستوى التهديدات لمؤسسة الدولة، والناجمة عن تمرد الأقاليم على المركز، وبطبيعة الحال ليس له أي دور في رفع المعاناة عن كاهل المواطن العادي، وهو ما يعنى إجمالا انسدادا في الأفق السياسي في السودان[21].

لعل الأحداث المتواترة والوضع غير المستقر سيكون له تبعات على مستقبل الأوضاع في دارفور، حيث ستؤثر هذه الأحداث في الموقف السياسي، وقد ينتج عنها انقسام قد يضعفه على المدى القريب مع المطالبة بالاستقلال على غرار الجنوب السوداني. كما أن الموقف الدولي عامة، والأمريكي على نحو خاص سيظل، عاملا مؤثرا في مسار الأوضاع المستقبلية في السودان، وسيحول دون دخول طرفي النزاع مرة أخرى في حرب شاملة، إلا أن ذلك لا يمنع من استمرار المناوشات، والتوترات العسكرية المحدودة بين الطرفين [22]، الشيء الذي سيؤدي حتما إلى مضاعفة معاناة السكان، ويساهم في تأزيم الوضع الإنساني برمته.

1 -2-2 الوضع الإنساني في السودان

إن الوضع الإنساني المتردي الذي يعرفه السودان عامة ودارفور على الخصوص يعد من بين أسوأ الكوارث الإنسانية التي شهدها هذا القرن، حيث أوردت التقارير الدولية حاجة الإقليم

الهوامش

13 - www.minshawi.com

14 -د. هشام بشير، ذ. إبراهيم عبد ربه إبراهيم، المدخل لدراسة القانون الدولي الإنساني، الطبعة الأولى 2012، ص: 134.

15 - ناصري مريم، فعالية العقاب على الانتهاكات الجسيمة لقواعد القانون الدولي الإنساني، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في العلوم القانونية- تخصص قانون دولي إنساني- جامعة الحاج لخضر باتنة 2008/2009. ص 61.

16 - إسلام عبد الرحمن، أسباب وتداعيات الصراع القبلي في السودان. http://raseef22.com/politics/2014/07/30

17 - إلياهو لاو ترباخت، يهودي بريطاني، أستاذ القانون الدولي بجامعة كامبريدج.

18 -روجيه بارتلز، التطور التاريخي للتقسيم القانوني بين النزاعات المسلحة الدولية وغير الدولية ا المجلد 91 ، العدد 873 مارس 2009.

19 - د. الواثق كمير، تفكك الدولة السودانية: السِناريو الأكثر تَرجيحا، الأحد 10 شباط (فبراير) 2013 http://www.sudantribune.net

20 - أحمد ضحية ، دارفور :- حول جذور الأزمة، و أسبابها ومآلاتها، الحوار المتمدن، العدد 1178، 2005-04-25.

21 -د. أماني الطويل، مستقبل السودان: واقع التجزئة وفرص الحرب، تقييم حالة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، معهد الدوحة، يوليوز 2011.ص: 14.

22 -أكرم حسام، مجلة السياسة الدولية، مستقبل العلاقات بين شمال السودان وجنوبه بعد أزمة هجليج، 16مارس 2014.

Rihanat_No44 modif 1.indd 22-23
11/02/2018 23:57:24

إلى الغذاء والدواء وأعمال الإغاثة، ولقد وصل عدد المنظمات غير الحكومية إلى أكثر من 200 منظمة، إلى جانب 5000 موظف محلي يتوزعون في حوالي 260 منظمة وطنية[23]. فالأرقام والإحصائيات تشير إلى أن أكثر من 2.2 مليون شخص شردوا بسبب النزاع، وأكثر من 1.6 مليون نزحوا داخليا، وأكثر من 616000 من الناس فروا إلى الدول المجاورة.

كما أن انعدام الأمن الغذائي الحاد يؤثر على 4.6 مليون شخص حاليا مقارنة مع 3.8 مليون في ذروة موسم الجفاف، بينما شمل برنامج الأغذية العالمي أكثر من 2.3 مليون في عام 2015، إن أزمة الجوع الشديد ستشكل حتما تهديدا أكبر في المستقبل، خاصة إذا استمر القتال وترك الناس غير قادرين على تلبية احتياجاتهم الخاصة الأساسية حيث دمرت الحرب كل سبل العيش.[24]

كما أن النزوح الداخلي مستمر في دارفور وجنوب كردفان والنيل الأزرق، وقد نزح حوالي 3.1 مليون شخص، منهم 210 ألف نزحوا منذ يناير 2015، بينما اعتبر 5.4 مليون شخص في حاجة للعون الإنساني[25] ، حيث أدى الوضع الإنساني المتردي إلى بحث النازحين عن ملاذ آمن من العنف الذي يجتاح بلادهم.

حتى يونيو 2015، وبسبب الصراعات الداخلية الإقليمية بلغ عدد اللاجئين وطالبي اللجوء في السودان نحو 304.879 [26]، غير أن الهجرة والنزوح في استمرار على شكل تدفقات كبيرة، في وقت تواجه فيه الجهات العاملة في مجال العون الإنساني تناقصا في التمويل مقارنة بالعدد المتزايد لحالات الطوارئ الحادة في أنحاء مختلفة من العالم .[27]

2- فاعلية القانون الدولي الإنساني في النزاع السوداني

أصبحت الحروب المعاصرة أشد فتكا حيث لم تعد تمت بصلة لمذابح القرن التاسع عشر، فإذا كانت عمليات القتال في ذلك الزمن تجري في ساحات مخصصة للمعارك، فإنها اليوم أصبحت تدور رحاها في قلب المناطق الآهلة بالسكان، وأصبحت الحرب التقليدية بين جيوش الدول المتحاربة استثناء، والقاعدة هي النزاعات غير الدولية، وصار المدنيون اليوم هم الضحايا الرئيسيون في النزاعات المسلحة28، وارتفعت بالتالي معاناة العنصر البشري، وحاجاته الملحة إلى الحماية والمساعدة في جميع المجالات، فهل التشريع الإنساني الدولي قادر على تحقيق ذلك؟

2- 1 تطبيق القانون الدولي الإنساني في السودان ومراقبته

يهدف القانون الدولي الإنساني بشكل رئيسي إلى حماية الإنسان والأعيان المدنية من خلال منظومة قانونية وقائية تحول دون وقوع الفعل، أي أن القانون الدولي الإنساني يتضمن الضوابط والقيود التي يجب على القوات المسلحة الالتزام بها منعا من وقوع أفعال إجرامية. وبعبارة أخرى، فإن الكيان القانوني بقواعده ثابت وقائم قبل النزاع المسلح، بينما فعالية تطبيق آليته لا تبدأ إلا مع نشوء النزاع المسلح، سواء كان ذا طبيعة دولية أو غير دولية، وهذا ما يقتضي التمييز بين وجود القانون وبين فعاليته. ومن جهة ثانية، لا تتصف آلية عمل القانون الدولي الإنساني بالطبيعة الوقائية فقط، وإنما تطبق أيضا بعد وقوع الفعل، حيث أن مخالفة أحكامه تدخل في خانة الجرائم الدولية التي تستدعي تطبيق قواعد العدالة الجزائية الدولية .29

2-1-1 مجال تطبيق القانون الدولي الإنساني في النزاع السوداني

إن القانون الدولي الإنساني هو عبارة عن مجموعة من القواعد العرفية و الاتفاقية التي تنظم المشاكل الإنسانية في المنازعات المسلحة الدولية وغير الدولية، ويتكون هذا القانون من مجموعتين من القواعد، أولاهما تلك التي تستهدف الحد من حق الأطراف في استخدام أساليب وسائل الحرب في النزاع، وثانيهما حماية الأشخاص والأموال في زمن النزاع .[30]و يعترض تطبيق القانون الدولي الإنساني مجموعة من الإجراءات المتصلبة، ولعل أكبر نجاحاته تبدو وقد تحققت بأقل الإجراءات تعقيدًا وهو ما يتضح في التأثير المتنامي للجنة الدولية للصليب الأحمر، وخاصة في النزاعات المسلحة غير الدولية.

لقد عجز القانون الدولي الإنساني المنطبق على النزاعات المسلحة غير الدولية عن توفير الحماية المطلوبة الناتجة عن هذه النزاعات، وكما أقرت المؤتمرات الدبلوماسية التي اعتمدت اتفاقيات جنيف وبروتوكوليها الإضافيين، إذ لا تمثل المادة الثالثة المشتركة في اتفاقيات جنيف، والبروتوكول الثاني إلى هذه الاتفاقيات، إلا مجموعة أولية من القواعد، وتتخطى ممارسات الدول ما قبلت به هذه الدول في المؤتمرات



الدبلوماسية، إذ يتفق معظمها على أن جوهر القواعد العرفية التي تحكم سير العمليات العدائية ينطبق على كافة النزاعات المسلحة، الدولية وغير الدولية[31].

اتعد النزاعات المسلحة غير الدولية من النزاعات القديمة التي عرفها القانون الدولي، فقد تميزت هذه النزاعات بالطابع المأساوي نتيجة انتشار العنف والأسلحة فيها، والانتهاكات الخطيرة للمبادئ الأساسية للقانون الدولي الإنساني، ومع ذلك جاء هذا الأخير بتنظيم محدود وقاصر لا يكفي لضمان الحماية القانونية الدولية اللازمة، والمساعدة الإنسانية لضحايا هذا النوع من النزاعات، خصوصا إذا ما نظرنا إلى التنظيم الدولي الخاص بالنزاعات المسلحة الدولية. و يخضع نزاع دارفور باعتباره نزاعا مسلحا غير دولي « داخلي» إلى مواد البروتوكول الإضافي الثاني، وبذلك تبقى المادة الثالثة المشتركة في اتفاقيات جنيف الأربع الحكم التعاهدي الوحيد المنطبق على هذا النزاع .[32]

عليه، فإن القواعد التعاهدية التي تحكم هذا النوع من النزاعات تبقى قليلة مقارنة مع النزاعات المسلحة الدولية ولعل من بينها: الاتفاقية بشأن أسلحة تقليدية معينة بعد التعديل الذي أدخل عليها، والنظام الأساسي

الهوامش

23 -مجلة قراءات إفريقية العدد 06، المنظمات الإنسانية الغربية وإفريقيا، يناير مارس 2011 العدد 07 الصفحة 87، العمود الأول الفقرة 3،2.

24 - http://www.un.org/press/en/2015/sc12021.doc.htm, 25 AUGUST 2015, Special Representative, in Briefing to Security Council, Urges Immediate End to Hostilities in South Sudan amid 'Precipitous' Worsening of Situation.

25 - مكتب منسق الأمم المتحدة للشؤون الإنسانية.

26 - المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، يونيو 2015.

27 -تقرير المنظمة الدولية للهجرة الإنساني النصف سنوى بالسودان يناير – يونيو 2015.

28 - ديدييه بوركهالتر رئيس الاتحاد السويسري.بيتر ماورير، رئيس اللجنة الدولية للصليب الأحمر، احترام القانون الدولي الإنساني، صحيفة الرياض اليومية الإلكترونية، الاثنين 29 شوال 1435 هـ - 25 غشت 2014م - العدد 16863 , صفحة رقم (4).

29 - www.assafir.com

30 -قصي مصطفى عبد الكريم تيم، مدى فاعلية القانون الدولي الإنساني في النزاعات المسلحة الدولية وغير الدولية، دراسة ماجستير في القانون العام بكلية الدراسات العليا – جامعة النجاح الوطنية – نابلس – فلسطين 2010، ص 12.

31 -جون- ماري هنكرتس ولويز دوزوالد- بك، القانون الدولي الإنساني العرفي، المجلد الأول: القواعد، ص: 11.

32 - نفس المرجع السابق.

Rihanat_No44 modif 1.indd 24-25 11/02/2018 23:57:24

للمحكمة الجنائية الدولية، واتفاقية أوتاوا لحظر الألغام المضادة للأفراد، والاتفاقية الخاصة بالأسلحة الكيميائية، واتفاقية لاهاي لحماية الممتلكات الثقافية وبروتوكولها الثاني، إضافة إلى ما سبق ذكره كالبروتوكول الإضافي الثاني والمادة الثالثة المشتركة لاتفاقيات جنيف الأربعة.

أمام الوضع الإنساني المزري الذي يعرفه إقليم دارفور فلقد بادرت اللجنة الدولية للصليب الأحمر بعرض خدماتها على أرض النزاع، و كان لحكومة السودان أن توافق على مبادرة اللجنة الدولية أو أن ترفضها، مما يؤكد على صعوبة التدخل في النزاعات المسلحة غير الدولية، في ظل غياب تشريع دولي تعاهدي قادر على احتواء الوضع.

2-1-2 مراقبة تطبيق القانون الدولي الإنساني في النزاع السوداني

بما أن اتفاقيات القانون الدولي الإنساني، لم تضع آليات للمراقبة التعاهدية، فإن اللجنة الدولية للصليب الأحمر تقوم بدور المراقب لتنفيذ أحكام القانون الدولي الإنساني في حالة النزاع الدولي، وفي النزاعات المسلحة غير الدولية تقوم بعرض خدماتها على أطراف النزاع وتتخذ أية مبادرة إنسانية خاصة بتحسين أحوال ضحايا النزاعات المسلحة وحمايتهم .[33]

في هذا السياق قام المقرر الخاص بشأن السودان بتطبيق المادة 3 المشتركة بين اتفاقيات جنيف الأربع لعام 1949 على جيش التحرير الشعبي للسودان، ووجد أن كلا الفصيلين مسؤول عن انتهاكات للقانون الدولي الإنساني أثناء القتال بين الفصيلين، وكذلك أثناء الصراع ضد القوات الحكومية وتضمنت الانتهاكات الهجوم دون تمييز على السكان المدنيين والاغتصاب والتشويه والنهب، كما تأكد تجنيد جيش التحرير الشعبي للسودان للأطفال، بالرغم من أن المقرر لم يفسر كيف يمكن اعتبار ذلك خرقا للمادة الثالثة (3)المشتركة، أو لأي حكم آخر من أحكام القانون الدولي الإنساني الملزم لجيش التحرير الشعبي للسودان، وقد وقع حزبا جيش التحرير الشعبي للسودان ما يعتبر اتفاقا لاحترام البروتوكول الثاني بالرغم من أن حكومة السودان لم تقره كذلك، كما أدان المقرر استيلاء أحد حزبي جيش التحرير الشعبي للسودان على طائرة تخص اللجنة الدولية للصليب الأحمر واحتجاز ركابها وطاقمها كرهائن واصفا هذا العمل بكونه انتهاكا خطيرا للقانون الدولي الإنساني، حيث تشير المادة 11 من الباب الثالث من البروتوكول الثاني المضاف إلى اتفاقيات جنيف الأربعة لسنة 1977 إلى حماية وحدات ووسائط النقل الطبي، وألا تكون محلا للهجوم .[34]

خلاصة القول فإن هذا النزاع عرف عدة خروقات وانتهاكات، كانت تأثيراتها بادية العيان على سكان الإقليم، حيث تم تجاوز جميع الأعراف القديمة والحديثة المنظمة للنزاعات المسلحة، وفي غياب آليات لمراقبة هذه الانتهاكات زاد الوضع استفحالا، وتعددت الانتهاكات الإنسانية تحت ذريعة إخماد الاضطرابات والثورات الداخلية.

2-2 الانتهاكات الإنسانية ودور المحكمة الجنائية الدولية في النزاع السوداني

يعرف القانون الدولي الإنساني انتهاكات مستمرة من قبل الدول لتبرير سلوكها، وإعطاء شرعية للقوة حيث لا تعترف علنا ورسميا بانتهاكها لأحكام هذا القانون ، ولعل النزاع الداخلي الذي يعرفه السودان، خاصة في إقليم دارفور لهو خير دليل على حقيقة وطبيعة هاته الانتهاكات.

2-2-1 مظاهر انتهاك القانون الدولي الإنساني في النزاع السوداني

تشهد دارفور، المنطقة الواقعة في غرب السودان ومنذ العام 2003م، نزاعا مسلحا لا يأخذ الطابع الدولي وذلك وفقا للتعريف الوارد في القانون الدولي الإنساني 1949م، حيث جماعات المعارضة المسلحة من جهة، وقوات حكومة المؤتمر الوطني ومليشياتها من جهة أخرى.

لقد وقعت انتهاكات فاضحة للقانون الدولي الإنساني بما في ذلك القتل الجماعي القائم على أساس منهجي ومنظم بهدف القضاء على عرقيات بعينها، كقبائل الزغاوة والمساليت والفور على سبيل المثال وليس للحصر، فضلا عن التشريد القسري الجماعي، الاغتصاب، التعذيب وحرق القرى والاعتداء على الأموال وغير ذلك من الانتهاكات.

لقد أدرك المجتمع الدولي على أن الوضع في دارفور يمثل تهديدا خطيرا للسلم والأمن الدولي فبادرت المنظمات الدولية بإرسال لجان لتقصى الحقائق، ابتداء من لجنة الجامعة العربية لتقصى الحقائق في إقليم دارفور، مرورا باللجنة الإفريقية لتقصى الحقائق، ولجنة الأمم المتحدة لتقصى الحقائق، فضلا عن لجنة المؤتمر الإسلامي، وأخيرا اللجنة التي أرسلت عن طريق مكتب المدعى العام للمحكمة الجنائية الدولية.

إن كل اللجان السابقة وبدون استثناء أقرت بوجود انتهاكات صارخة في دارفور، إلا أنها كانت متفاوتة في ما يتعلق بموضوع الجريمة الدولية الكبرى، أو ما يعرف بالإبادة الجماعية. لذلك أحيل الوضع إلى المحكمة الجنائية الدولية عبر مجلس الأمن في العام 2005م، حيث درس مكتب المدعى العام برئاسة أوكامبو الوضع في إقليم دارفور بعناية قانونية فائقة، وتيقن بما لا يدع معه مجالا للشك أن جرائم دولية خطيرة بما في ذلك الإبادة الجماعية، جرائم ضد الإنسانية، وجرائم الحرب قد وقعت في الإقليم، واستنادا لمجموعة من الحيثيات القانونية أصدر مكتب المدعى العام مجموعة من مذكرات الاعتقال ضد عدد من الأفراد.

الجدير بالذكر إن التهم الموجهة إلى المتهمين متفاوتة ما بين تهم تتعلق بارتكاب جرائم إبادة جماعية، وتهم تتعلق بجرائم الحرب، والجرائم ضد الإنسانية. لقد تلكأ المجتمع الدولي من غير أعذار في المساعدة على تنفيذ قرارات مكتب المدعى العام للمحكمة الجنائية الدولية، وقد طال أمد انتظار الضحايا منذ أن اعتبر مجلس الأمن الوضع في دارفور مهددا للسلم والأمن الدولي، إن العدالة الجنائية الدولية لن تتحقق ما لم يكن هناك إرادة دولية صادقة .[36]

النتيجة لهجمات الميلشيات المسلحة ومعها القوات الحكومية على المدنيين، وارتكابها جرائم القتل المنظم والاغتصاب الجماعي والقتل خارج المحاكمة، ونهب الممتلكات والمواشي، وسياسة الأرض المحروقة، والعديد من الأعمال الوحشية، وسقوط العديد من القتلى والجرحى، ونزوح العديد من اللاجئين، أصدر مجلس الأمن القرار رقم 1593، القاضي بمحاكمة المسؤولين في تلك الجرائم إلى المحكمة الجنائية الدولية، وتحركت مجموعة من المنظمات الإنسانية لوقف المأساة وإغاثة المنكوبين.

إذا كان البعض يرى أن البروتوكول الثاني عالج من خلال نص المادة 14حماية الأعيان التي لا غنى عنها لبقاء السكان المدنيين مع حضر الهجمات على المواد الغذائية والمناطق الزراعية التي تنتجها والمحاصيل والماشية ومرافق مياه الشرب وشبكاتها وأشغال الري[37] فإن ما حدث بدارفور يتجاوز بكثير هذه النصوص إلى درجة نهج سياسة الأرض المحروقة والتهجير والتفقير فضلا عن الاغتصاب والقتل بدون محاكمات.

بما أن الحرب تخلف ضحايا فإنها كذلك تترك محتجزين لذلك ينبغي إيجاد السبل الكفيلة لتحسين حمايتهم

الهوامش

33 - منية عمار عضو اللجنة الوطنية التونسية للقانون الدولي الإنساني، معهد الكويت للدراسات القضائية والقانونية المركز الإقليمي لتدريب القضاة وأعضاء النيابة العامة في مجال القانون الدولي الإنساني الدورة الإقليمية الثانية في مجال القانون الدولي الإنساني من 10 إلى 14 مارس 2007، دولة الكويت 2008/2009.

34 - الملحق (البروتوكول) الثاني الإضافي إلى اتفاقيات جنيف، 1977.

35 - فرانسواز بوشيه سولنييه، القاموس العملي للقانون الإنساني، ترجمة أحمد مسعود، مراجعة د. عامر الزمالي، ومديحة مسعود، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، يناير 2014.

36 - https://africanjusticedemocracy.wordpress.com 12/01/2016

37 - د. محمد سامح عمرو أستاذ القانون الدولي المساعد كلية الحقوق - جامعة القاهرة، حماية البيئة في فترات النزاع المسلح ، معهد الكويت للدراسات القضائية والقانونية المركز الإقليمي لتدريب القضاة وأعضاء النيابة العامة في مجال القانون الدولي الإنساني الدورة الإقليمية الثانية في مجال القانون الدولي الإنساني من 10 إلى 14 مارس 2007، دولة الكويت 2008/2009.

Rihanat_No44 modif 1.indd 26-27 11/02/2018 23:57:25

في هـذا الـنـزاع المسلح غـير الـدولي عـلى غـرار قـوانـين الأسرى في النزاع المسلح الدولي، وهو ما قد يؤدي إلى سد ثغرات قانونية.[38] فـإن حصول مثل هذه الانتهاكات وفي غياب تام لتطبيق القانون الدولي الإنساني لينذر بالتراجع الخطير الذي تعرفه الساحة الدولية والإقليمية في حماية الإنسانية في الأرض الإفريقية، وإذا كان القانون الدولي الإنساني كتشريع دولي تحاول الدول التملص من تطبيقه في النزاعات المسلحة غـير الـدولـيـة حفاظا على سيادتها، فما دور القضاء الدولي في حال حدوث مثل هذه التجاوزات؟

2-2-2 دور المحكمة الجنائية الدولية في النزاع السوداني

ثبت للعالم برمته ومـما لا يدع مجالا للشك أنه لا سبيل للقضاء على انتهاكات القانون الدولي الإنساني، التي تزايدت وتيرتها بشكل متسارع في الآونة الأخيرة، بسبب زيادة القوة التدميرية للأسلحة الحديثة، التي باتت لا تفرق بين الأهداف العسكرية و الأهداف المدنية، سوى بإنشاء محكمة جنائية دولية دائمة تختص بالمحاكمة عن انتهاكات القانون الدولي الإنساني، والمعاقبة عن ارتكاب الجرائم الدولية .[39]

تختص هـذه المحكمة بمحاكمة الجرائم الجنائية المتعلقة بأربعة جرائم هي: الإبـادة الجماعية، وجرائم ضد الإنسانية، والحرب والعدوان المسلح، كما أنها مؤهلة للنظر في وقائع دارت في دولة ليست طرفا في نظام روما الأساسي، إذا أحيلت إليها من قبل مجلس الأمن التابع لمنظمة الأمم المتحدة، بمقتضى الفصل 17 من ميثاق الأمم المتحدة، وبما أن السودان لم يصادق على نظام المحكمة الجنائية الدولية، فالحل الوحيد هو أن يلجأ مجلس الأمن بنفسه إلى المحكمة، ومن واجبه أن يحيل الوضع في دارفور إلى المدعي العام بالمحكمة الجنائية الدولية، بما يتلاءم والمادة 13 من نظام روما.

ردا على الأحداث التي وقعت بمنطقة دارفور بالسودان، قام الأمين العام للأمم المتحدة في سبتمبر 2004 بإرسال لجنة تحقيق، وقد أورد تقرير اللجنة، الذي نشر ضمن توصياته إحالة الوضع في منطقة دارفـور إلى المحكمة الجنائية الدولية على أساس وجود دلائل ملموسة تدفع للاعتقاد بـوقـوع جـرائـم ضد الإنسانية وجرائم حرب منذ عام 2003، وعلاوة على ذلك، تم اعتبار أن القضاء السوداني غير راغب في ملاحقة المسؤولين المفترضين عن هذه الجرائم.

إن بعض أنواع الجرائم الجسيمة المخالفة للقانون الدولي مثل جرائم الحرب والتعذيب، تخضع لما يسمى بالاختصاص القضائي العالمي، الذي بموجبه يمكن لأي نظام قضائي داخلي في أي دولة أن يحقق ويلاحق الجناة في بعض الجرائم، حتى لو لم تكن مرتكبة على أراضي الدولة، أو من قبل أحد مواطنيها أو ضدهم، كما أن بعض المعاهدات، مثل اتفاقيات جنيف الأربع لعامة 1949، واتفاقية مناهضة التعذيب، تلزم الـدول الأطراف بتسليم أو ملاحقة المشتبه بهم بكونهم جناة في حال وجودهم داخـل أراضي الـدولـة، أو خاضعين لاختصاصها بشكل من الأشكال، بموجب القانون الدولي العرفي، ولعل المتفق عليه بشكل عام هو أن الدول مسموح لها بمقاضاة أولئك المسؤولين عن جرائم أخرى، كالإبادة الجماعية، أو الجرائم ضد الإنسانية، أينما وقعت تلك الجرائم .[40]

ذلك أقر مجلس الأمن الدولي بإحالة الوضع في دارفور إلى المدعي العام في المحكمة، وجاء ذلك في أعقاب حملة شنتها منظمة العفو الدولية وغيرها من المنظمات غير الحكومية. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يحيل فيها مجلس الأمن الدولي أحد الأوضاع إلى المحكمة الجنائية الدولية، كما أنها المرة الأولى التي تمنح فيها المحكمة الولاية القضائية على جرائم ارتكبت في دولة لم تصادق على «نظام روما الأساسي».وابتداء من 06 يونيو 2005 م، شرعت المحكمة الجنائية الدولية في التحقيق في الجرائم التي وقعت في دارفور، وأصدرت أمرين بالقبض على وزيـر الداخلية السابق أحمد محمد هـارون، زعيم ميليشيا «الجنجويد»[41] علي محمد علي عبد الرحمان، وقد اتهما بارتكاب جرائم ضد الإنسانية وجرائم حرب، ثم صدرت مذكرة من مدعي المحكمة الجنائية الدولية « لويس مورينو أوكامبو»، ثم قرار من المحكمة في 04 مارس 2009 م بتوقيف الرئيس الـسـوداني عمر البشير.[42]

لقد جـاء رد الـسـودان آنـذاك هو عدم الاعتراف بصلاحيات المحكمة، هذا بالإضافة إلى قيام الحكومة السودانية بطرد ثلاثة عشر (13) منظمة غير حكومية نظرا لتعاونها مع المحكمة الجنائية الدولية، وهددت بمعاقبة كل من أبدى تعاونا مع هذه المحكمة[43]. فإن مسألة القبض على الرئيس السوداني عمر البشير يتضمن سبع (7) تهم، وذلك استنادا إلى مسؤوليته الجنائية الفردية وفق المادة (25) (3) من نظام روما الأساسي باعتباره شريكا غير مباشر أو مرتكبا غير مباشر في خمس (5) تهم تتعلق ب:

- جرائم ضد الإنسانية – القتل المادة (7)(1)(أ)؛
- الإبادة – المادة (7) (1) (ب) و هي ليست الإبادة الجماعية المنصوص عليها في المادة (6) من النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية؛
- النقل القسري- المادة (7) (1) (د)؛
- التعذيب- المادة (7) (1) (و)؛
- الاغتصاب- المادة (7) (1) (ز)، من النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية.

إضافة إلى تهمتين متعلقتين بجرائم الحرب: تعمد توجيه هجمات ضد سكان مدنيين، أو ضد أفراد مدنين لا يشاركون مباشرة في الأعمال الحربية، المادة (8) (2) (هـ) (1)، النهب، المادة (8) (2) (هـ) (5) من النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية [44]. لكن رغم أمر الإيقاف الصادر عن المحكمة الجنائية الدولية في حق المتهمين، وثبوت انتهاكات القانون الدولي الإنساني بإقليم دارفـور، لم يتم القبض على المعنيين بالأمر رغم تحركاتهم خارج دولة السودان.

إن نتيجة هذا الحكم وغياب تفعيله والاحتفاظ بمنطوقه في رفوف مقر أحد أكبر أجهزة العدالة الدولية- المحكمة الجنائية الدولية- وانسحاب عدد من الدول الإفريقية من المحكمة الجنائية الدولية مما يضعف المحكمة ويقلل من شأنها خاصة وأن هذه الدول تمثل 34 دولة أفريقية من أصل 124 دولة[45] سيسجل صعوبة في أجرأة مضمون القانون الدولي الإنساني ويعصف بالمكتسبات السابقة، وسيزيد من تفاقم أوضاع ساكنة دارفور ويشجع على اقتراف المزيد من المذابح بالمنطقة وبمناطق أخرى في العالم.

• خاتمة

القد ساهمت مجموعة من التغيرات في العلاقات الدولية التي عرفها العالم خاصة في فترة التسعينات في التأثير على القانون الـدولي الإنساني، وعلى مسار السلم والأمـن الدوليين، حيث ظهرت العديد من النزاعات المسلحة ذات الطابع الداخلي إذ يغذيها المكون الطائفي

الهوامش

38 - https://www.icrc.org

39 - أنس المرزوقي، آليات وضمانات تطبيق القانون الدولي الإنساني، الحوار المتمدن- العدد: 4329 - 2014

40 - المحكمة الجنائية الدولية والسودان، الوصول إلى العدالة وحقوق المجني عليهم، تقرير، الخرطوم أكتوبر 2005.

41 - «جنجاويد» أو جنجويد مصطلح سوداني مكون من مقطعين هما: «جن» بمعنى جنى، ويقصد بها أن هذا الجني (الرجل) يحمل مدفعا رشاشا من نوع «جيم 3» المنتشر في دارفور بكثرة، و«جويد» ومعناها الجواد.. ومعنى الكلمة بالتالي هو: الرجل الذي يركب جوادا ويحمل مدفعا رشاشا، وقد ارتبط هذا المصطلح بأزمة دارفور بشكل كلي، إذ ينسب سكان دارفور من ذوي الأصول الإفريقية هذا المسمى لميليشيات شبه منظمة وذات أصول عربية تعمل على فرض سطوة الحكومة المركزية على الإقليم، وتتهم أيضاً بتنظيم عمليات اغتصاب وإبادة جماعية ضد السكان الأصليين. ويذكر أنها من الأسباب المباشرة لتفجر قضية دارفور بالمحافل العالمية، فضلاً عن ما يعانيه سكان دارفور من التهميش الحكومي وانعدام البنية التحتية. https://ar.wikipedia.org

42 - http://www.qiraatafrican.com/

43 - كريم مصلوح، قضية الرئيس عمر البشير أمام المحكمة الجنائية الدولية http://www.nadorcity.com

44 - موقع المحكمة الجنائية الدولية https://www.crin.org/en/Docs/icc_Darfur_Ar.pdf

45 - http://thawra.sy/_print_veiw.asp

Rihanat_No44 modif 1.indd 28-29 11/02/2018 23:57:26

والعرقي والإثني بتشجيع وتمويل أجنبي، وتدخلات إقليمية ودولية، ويزيد من فتيل الأزمـة انتشار الأسلحة وغياب سلطة حكومية قوية قادرة على الضبط والتنظيم، مما يؤدي إلى تفاقم الوضع الإنساني، حيث القتل الوحشي والعنف بشتى أنواعه، وينتج عنه كوارث إنسانية كالنزوح واللجوء والعاهات المستديمة والأمراض والأوبئة والمجاعات، ويستفحل الأمـر ويـزداد فظاعة في غياب قوانين منظمة لضبط هذه النزاعات وضعف المساعدات الدولية، إن حالة دارفور تجسيد لهذا الواقع، ففي غياب الاستقرار والأمن، وعدم الانخراط في الحوار البناء وتقريب وجهات النظر بين الفرقاء لا يزيد إلا اشتعالا للأزمة بالمنطقة ويمهد لانقسامات وتشكيل دويـلات متشرذمة خاضعة لقوى أجنبية، ويذكي شرارة النزعة الانفصالية في العديد من الدول، لذلك وجب احتواء هذا الوضع، واقتراح حلول تراعي طبيعة الاختلافات وخصوصيات المكونات العرقية والدينية، حفاظا على وحدة البلد، هذا من جهة، ومـن جهة أخـرى يجب العمل على تعزيز القانون الدولي الإنساني ليشمل النزاعات المسلحة بنوعيها الدولية والداخلية (غير الدولية) وخاصة منها: الاضطرابات والتوترات الداخلية، إضافة إلى توفير الحماية الشاملة لكل الفئات والأعيان المتضررة، وذلك بناء على مبادئ القانون الدولي الإنساني وعلى ما استقر عليه العرف وما يمليه الضمير العام، مع الالتزام بإنفاذ هذه القوانين سواء على المستوى الداخلي أو الدولي، وفي حالة الإخـلال والمخالفة كالرفض والتملص يجب تفعيل الجزاءات من قبل القضاء الـدولي المختص، وذلـك حتى يتسنى تطبيق الأحكام بشكل سلس وبدون انتقائية بين الدول، ليعم الأمن والسلم الدوليين. ■

المراجع

- الكتب :

1. **أحمد سي علي، دراسات في القانون الدولي الإنساني، دار الأكاديمية للطبع والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2011.**
2. **د. أماني الطويل، مستقبل السودان: واقع التجزئة وفرص الحرب، تقييم حالة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، معهد الدوحة، يوليوز 2011.**
3. **جون- ماري هنكرتس ولويز دوزوالد- بك، القانون الدولي الإنساني العرفي، المجلد الأول: القواعد.**
4. **د. هشام بشير، ذ. إبراهيم عبد ربه إبراهيم، المدخل لدراسة القانون الدولي الإنساني، الطبعة الأولى 2012.**
5. **فرانسواز بوشيه سولنييه، القاموس العملي للقانون الإنساني، ترجمة أحمد مسعود، مراجعة د. عامر الزمالي، ومديحة مسعود، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، يناير 2014.**

- الأطروحات والرسائل :

1. **مستاك يحيى محمد لمين، قضية دارفور وأبعادها الإقليمية والدولية، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في العلوم السياسية تخصص التنظيمات السياسية والعلاقات الدولية، دراسة من 2003 إلى 2015، كلية الحقوق والعلوم السياسية قسم العلوم السياسية مدرسة الدكتوراه في القانون والعلوم السياسية، جامعة ميلود معمري تيزي وزو.**
2. **ناصري مريم، فعالية العقاب على الانتهاكات الجسيمة لقواعد القانون الدولي الإنساني، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في العلوم القانونية- تخصص قانون دولي إنساني- جامعة الحاج لخضر باتنة 2008/2009.**
3. **قصي مصطفى عبد الكريم تيم، مدى فاعلية القانون الدولي الإنساني في النزاعات المسلحة الدولية وغير الدولية، دراسة ماجستير في القانون العام بكلية الدراسات العليا – جامعة النجاح الوطنية – نابلس – فلسطين 2010.**

- المجلات والصحف :

1. أحمد زكي عثمان، ما بعد كلاوزفيتز، الخيال السياسي، الحروب الجديدة: استراتيجية للعنف المطلق، مجلة الإنساني، العدد 59، اللجنة الدولية للصليب الأحمر، صيف 2015
2. أكرم حسام، مجلة السياسة الدولية، مستقبل العلاقات بين شمال السودان وجنوبه بعد أزمة هجليج، 16مارس 2014.

3. **د. الوليد سيدي علي، المنظمات الإنسانية الأجنبية بدارفور بين الإنسانية والسياسة، مجلة قراءات إفريقية العدد 07، المنظمات الإنسانية الغربية وإفريقيا، يناير مارس 2011**
4. **ديدييه بوركهالتر رئيس الاتحاد السويسري.بيتر ماورير، رئيس اللجنة الدولية للصليب الأحمر، احترام القانون الدولي الإنساني، صحيفة الرياض اليومية الإلكترونية.**
5. **مجلة قراءات افريقية قضية الجنوب السوداني، افتتاحية، العدد الثامن (08) أبريل يونيو 2011.**
6. **عمر روابحي، تحديات تطبيق القانون الدولي الإنساني أثناء النزاعات غير المتماثلة، المجلة الدولية للقانون، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة البويرة الجزائر،2015.**

- التقارير :

1. تقرير المنظمة الدولية للهجرة الإنساني النصف سنوى بالسودان يناير – يونيو 2015
2. تقرير، المحكمة الجنائية الدولية والسودان، الوصول إلى العدالة وحقوق المجني عليهم، الخرطوم أكتوبر 2005.
3. تقرير معهد الكويت للدراسات القضائية والقانونية المركز الإقليمي لتدريب القضاة وأعضاء النيابة العامة في مجال القانون الدولي الإنساني الدورة الإقليمية الثانية في مجال القانون الدولي الإنساني من 10 إلى 14 مارس 2007، دولة الكويت 2008/2009.
4. تقرير مكتب منسق الأمم المتحدة للشؤون الإنسانية، 2015.
5. تقرير المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، يونيو 2015
6. مولوجيتا جيبرهيوت وجيتاشو زيروا، نحو غاية مشتركة : الأساليب التعاونية لحل الصراعات في أفريقيا، ورقة عمل مقدمة من معهد الدراسات الخاص بقضايا الأمن والسلم،جامعة أديس أبابا، 5 فبراير 2013م.
7. تقرير المنظمة الدولية للهجرة الإنساني النصف سنوى بالسودان يناير – يونيو 2015

- الوثائق :

1. اتفاق نيفاشا.
2. المادة الثالثة المشتركة بين اتفاقيات جنيف الأربعة؛
3. البرتوكول الثاني 1977.
4. النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية.

- كتب باللغة الأنجليزية :

1. Sudan a country study Federal Research Division Library of Congress Edited by LaVerle Berry, Fifth Edition, First Printing, 2015.

- الواييوغرافي :

1. https://africanjusticedemocracy.wordpress.com
2. www.ahewar.org
3. www.assafir.com
4. www.alkottob.com
5. http://alwatan.kuwait
6. https://www.crin.org
7. www.minshawi.com
8. https://www.icrc.org
9. http://www.nadorcity.com
10. http://www.qiraatafrican.com
11. https://ar.wikipedia.org
12. http://raseef22.com
13. http://www.un.org
14. http://www.sudantribune.net
15. http://thawra.sy/_print_veiw.asp

Rihanat_No44 modif 1.indd 30-31 11/02/2018 23:57:26

الحركات الجهادية بالساحل الإفريقي : تحالفات ظرفية



أحمد صلحي

باحث
في الدراسات الدبلوماسية والدولية
جامعة محمد الخامس / الرباط - المغرب

أعلنت مؤخرا أغلب الحركات الجهادية بالساحل والصحراء تحالفها تحت مسمى «جماعة نصرة الاسلام والمسلمين»، وأكد زعيمها الجديد إياد أغ غالي أبو الفضل -زعيم حركة انصار الدين بمالي سابقا- وفاء تنظيمه الجديد للجهاد وقتال القوات الفرنسية والقوى المتحالفة معها، وعبّر عن رؤيته في شريط مسجل يوثق لإعلان التحالف بالاعتصام والاتحاد في بيان الاندماج الذي بتته مؤسسة الزلاقة التابعة له، بايع التحالف تنظيم القاعدة وحركة طالبان.

ظهر زعيم التنظيم يتوسط كل من قادة كتائب ماسينا وكتيبة المرابطون وتنظيم القاعدة ممثلا بإمارة الصحراء وبحضور قاضي منطقة الصحراء، وتوخى هذا التحالف توحيد الجهود من أجل محاربة فرنسا وأعوانهم، واعتبرت هذه والجماعة خطوة لإعادة نموذج طالبان بأفغانستان وتعزيز مكانة القاعدة بالمنطقة ضد محاولات «داعش» ايجاد موطئ قدم بالمنطقة، وشكل هذا التحالف مفاجأة للمتتبعين لما حمله من رسائل، وان كان يعبر عن تحالف ظرفي اطرته عوامل عدة؛ الانهزامات المتكررة ومحدودية العمليات وخسائر القاعدة بالجزائر وبالساحل والصحراء، لذلك سارع تنظيم القاعدة بالمغرب الإسلامي والقاعدة الام اياما قليلة بعد الاعلان للترحيب بالكيان الجديد ومباركته، ولإظهار وجوده كثف هذا التحالف من عمليات وهجمات متواصلة (تقليدي ومحدودة) لإرساء ارضيته ومكانته، فما خليفات هذا التحالف؟

- الحركات الجهادية : من التسلل الى التحالفات :

أضحت منطقة الساحل الإفريقي معقلا للحركات الجهادية المقاتلة، وقد ارتقت لوصف «ساحلستان» بعد سيطرة الحركات الجهادية على شمال مالي، واعلان الخلافة بالمنطقة، انطلقت بداية من الانفلات الامني به بعد سيطرة حركة ازواد العلمانية على الاقليم، وتحالفها مع هذه الحركات؛ وابرزها حركة انصار الدين وتنظيم الجهاد بغرب افريقيا، وجماعات تدين بالولاء لتنظيم القاعدة، واستغلت هذه الحركات السلفية المقاتلة ضعف الحركة الوطنية لتحرير الأزواد



معلنة تطبيق الشريعة، وانتهى ذلك بالتدخل الفرنسي، فعادت هذه الحركات لمناطق نفوذها والصحاري وانتظمت لتواصل جهادها وعملياتها ومحصلتها هذا التحالف.

عودة الى البداية، يرجع تسلل أولى خلايا هذه الحركات للمنطقة لفترة العشرية السوداء بالجزائر؛ حيث تسلّلت بعض فلول الجماعات المقاتلة للجنوب الجزائري؛ إذ استغلت ضعف الحدود مع مالي واشتداد الحصار الأمني على افرادها لتتخطاها -الحدود- وتستقر بصحاري مالي، وكانت نواتها الأولى خطوة التفافية للاحتماء بساكنة المنطقة وتطوير استراتيجياتها بحثا عن مناطق نفوذ بالصحراء.

في هذا السياق، افتتحت تلك الحركات -وأبرزها أعضاء ومقاتلي الجماعة السلفية للدعوة والقتال- جهودها بمحاولات لإقامة كيان موحد من الصحراء كقاعدة خلفية، فطوّرت اساليبها ووسائلها مستفيدة من تجربة عملياتها بالجزائر، اذ خطط قاداتها بدقة وحنكة محافظة على نهجها القتالي والإيديولوجي؛ حيث تسللت عناصرها وحاولت إيجاد حاضنة اجتماعية بتحالفها مع الأطر التقليدية (كالقبائل والعشائر...) عبر أليات التزاوج والدعوة، كما حاولت تسريب افكارها عبر محاضرات وتوجيهات وأشرطة وكتب. كما تغلغلت في جميع الانشطة الموازية



للتحكم بمداخيلها (كالمخدرات والأسلحة ومواد التهريب...)، واستغلت ضعف الرقابة على الحدود لتدريب مقاتليها بجبال مالي وصحاريها وعبرها للمناطق الحدودية مع مالي وكوديفوار.

بإعلان الجماعة السلفية للدعوة والقتال ولائها لتنظيم القاعدة وتغيير اسمها إلى «تنظيم القاعدة بالمغرب الاسلامي»، ولتكييف حضورها بالساحل والصحراء، أرسى قائده عبد المالك دردوكال هيكلة أولية للمقاتلين التابعين لتنظيمه بالمنطقة، وبعد التطورات الأمنية وخطوات المصالحة والوئام بالجزائر طور استراتيجياته فشكل إمارة الصحراء ضمت عدة كتائب تابعة للتنظيم كطارق بن زياد و، كما بلور استراتيجية قتالية لاستهداف المصالح الدول الغربية بالمنطقة في حرب استنزافية بالساحل الإفريقي، وفاء لوعده -تحالفه وولائه للتنظيم ومن اجل جعل المنطقة ساحة للعمليات العسكرية- للعمل الجهادي العالمي.

أخيرا، تسربت الخلافات لهذه الإمارة او هكذا ظهر، فأعلنت جماعات وسرايا خروجها عن بيعة تنظيم القاعدة مشكلة جماعات أخرى وحركات محلية منفصلة عنها تتحرك لنفس الأهداف، تعبيرا عن جيل أخر للحركات الجهادية بالمنطقة، لعل ابرزها المرابطون الذي يطور عملياته وتحالفاته.

- الحركات الجهادية في أبعادها المحلية والدولية:

تتقاسم المنطقة المتميزة بفضائها الفسيح ومناخها الصحراوي وحدودها المفتوحة، ودولها الهشة وامكاناتها المهمة وتنمينها المحدودة (...)، حركات متنوعة تراوحت بين الانفصالية والدعوية والانسانية وحركات جهادية سلفية تنوعت مشاربها واسماؤها وزعماتها، كما تنوعت عملياتها واساليبها وفضاءاتها، ويوحدها الهدف الأساسي «الجهاد» واستهداف مصالح الدول الغربية ورعاياها، وعلى هذا المستوى تركن لتحالفاتها الظرفية وتحركاتها من

Rihanat_No44 modif 1.indd 32-33 11/02/2018 23:57:26

اجل البقاء فليس الامر تكتيكا عمليا تنظيميا، إنما واقع تفرضه الظروف الأمنية.

الواقع أن هذه الحركات تتنوع تشكيلاتها وتداخل احيانا، كما تنقلب الولاءات من تنظيم لآخر -فيغيرون اسلحتهم من كتف لأخر-، وتتباين بأجندة مختلفة ومتقاطعة معلنة حينا أو خفية أحايين أخرى، والثابت الوحيد لها تهديد أمن دول المنطقة والمصالح الاجنبية الغربية اساسا، ورؤيتهم الحالمة بتطبيق الشريعة وانشاء كيان مستقل. كما تتراوح بين حركات محلية تطالب بمطالب فئوية تنموية فانتقلت لتبني الفكر الجهادي وحافظت على رؤيتها المحلية، فتَحصر اعدائها في الجيش المحلية، وتنطلق من سعيها لإعادة الخلافة للمناطق التابعة لها (...)، وهي بذلك لا تعكس رؤية الفروع المحلية للحركات الجهادية العالمية كتنظيم القاعدة وتنظيم الدولة الاسلامية بالعراق والشام المعروف إختصارا بداعش، فتنظيم القاعدة بالمغرب الإسلامي يُحاول الدفاع عن ولائه للقاعدة الأم، ويربط تحركاته بالمسار العام الذي يرسمه التنظيم لفروعه، ومع ذلك، يتمتع بحرية التصرف المحدودة، أما أولوية التنظيمات التي تبايع داعش فتنحصر في الولاء للدولة الخلافة، لتعد هذه المحاور المحلية ولايات تابعة للدولة الإسلامية.

عليه، فتحركات الجماعات الارهابية المحلية المبايعة للتنظيمات الدولية يحكمها توجه اعتبارها كأذرع خارجية لها، وتوظيفات محلية لأهداف عالمية؛ فتربط القاعدة تحركاتها بالمنطقة باستراتيجية تخفيف الضغط على الحركة الام، وتُصنّف الحركات بالمنطقة ضمن مناطق نفوذ مركزها الجهوي قاعدة الجهاد بالمغرب الاسلامي، وينبغي القول أيضا ان تنظيم الدولة فقد طورت فروع خارجية تابعة لها وحافظت على نفس الأهداف-تخفيف الضغط-، وتأتي محاولاتها بالساحل من اجل ارساء قاعدة بالمنطقة، ومن اجل التعويض على خسائرها بالعراق.

بطبيعة الحال، تتقاطع اجندة هذه الحركات الدولية وتحالفاتها، ومعها يظهر التنافس بينها، فلإرساء قاعدة محلية استغلت داعش ضعف تنظيم القاعدة بالمنطقة، فأعلن وليد الصحراوي -أمير كتيبة المرابطون سابقا- مبايعة تنظيمه للبغدادي قبل إقالته وتكذيب التنظيم للبيعة المزعومة، وفي نفس السياق، احتضن داعش تحركات بوكوحرام فأعتبر مناطق تمركز الحركة بشمال شرق نيجيريا ولاية غرب افريقيا تابعة للتنظيم، كما توسلت تحالفات بليبيا وتونس والجزائر كمحاولات لإرساء قاعدة لها بالمنطقة، وستتجدد المحاولة ببوركينافاسو بإعلان مبايعة حركة انصار الدين البورانية للتنظيم.

للإشارة، فوسط هذا التنافس المحموم بين داعش والقاعدة للحصول على مناطق النفوذ بالمنطقة، تتحرك الحركات المحلية بمعطى ثابت لتعزيز نفوذها بالمنطقة وتوسيع نطاقها، وكمحاولة لتصحيح الأمور وإرساء قاعدتها، ولأجل ذلك، انتظمت في تحالف «جماعة نصرة الاسلام والمسلمين» ظمّ أغلب الحركات الجهادية بالمنطقة، واعلن عن استمرار حربه ضد القوات الفرنسية وحلفائها، حيث تتحرك بتحالفات ظرفية بقيادة محلية تسعى عبرها هذه الحركات لتأمين وجودها والدفاع عن قواعدها وانشطتها.

من المؤكد بالنهاية، أن هذه التحالفات مُحصّلة لعدة عوامل؛ أولا، إنها وليدة ظرفية التنافس بينها كما أسلفنا سابقا، وثانيا، إنها وليدة ظرفية الضغط الأمني أو الضعف التنظيمي لها، وأخيرا، إنها ترجمة لمحاولة ترتيب الأوراق لهذه الحركات بتوسيع هامش تحركاتها وبنك أهدافها، وتطوير منطقة عملياتها بالانفتاح على دول أخرى كليبيا وبوركينافاسو مثلا، وان كان قاداتها يؤكدون أن هذه التحالفات خيارات مُفكر فيها ونتاجا لخيارات استراتيجية. وللمفارقة، أن هذه الحركات نتاج لتحالفات ظرفية؛ فماضيها ونشأتها بدأت بشراكات مع القبائل وحتى مع حركات التهريب -فزعيم المرابطون يلقب «بالسيد مارلبولور» لدوره المحوري في تجارة التهريب-، كما أن هذا التنظيم الأخير مثلا تأسس بعد اندماج تنظيم التوحيد والجهاد بغرب افريقيا والملثمون.

مهما يكن، فعمليات هذا التحالف وغيرها تبقى تقليدية (زرع العبوات رشقات بالصواريخ واشتباكات محدودة ...) في حرب عصابات طويلة يصعُب إنهاؤها، على أن هذا لا يعني الاستهانة بها، بقدر ما يعكس المأزق الذي تتخبط فيه المنطقة، فعملياته تشكل تحدي امني حقيقي اذ تضاعف حجم العمليات الارهابية التي تشهدها بالمنطقة، كما تم توسيع بنك أهدافها ليشمل قوات عملية برخان وحتى بعثة الامم المتحدة لحفظ السلام بمالي، مما يتطلب يقظة امنية وتعاونا بين الفواعل الأمنية بالمنطقة للقضاء على هذه الحركات وللتضيق على هذه التحالفات، فما هي الخيارات المتاحة لتفكيكها والقضاء على تهديداتها؟

- تحالفات وتحالفات مضادة:

برّرت هذه الحركات تحالفاتها بأنها خطوة لتوحيد الجهود كما فعلت القوى المحاربة لها وبانها خطوة مقررة قبل التدخل الفرنسي، وهذا الحدث ساهم في عرقلتها وإن كان ذلك لا ينفي تعاونا مشتركا في الميدان لمحاربته، إلى ذلك، كانت تحالفات الدول وشراكاتها سبّاقة في التصدي لظاهرة الحركات الارهابية، اذ ارتبطت بالحملة الدولية لمكافحة الإرهاب التي أعلنها بوش الابن بعد أحداث 11 شتنبر، فتحرّك الدول في اطار حملة مكافحة الارهاب عبر شراكات وعمليات وتحالفات (...) للقضاء على الظاهرة.

في طليعة هذه الدول؛ الولايات المتحدة الأمريكية التي تبنت بعد أحداث نيويورك إستراتيجية التحرك الامني مع دول المنطقة من أجل تحجيم الظاهرة والقضاء على خطرها، وركزت على مبادرة الشراكة ممن اجل التصدي للإرهاب؛ وكانت البداية في اطار مبادرة بان ساحل 2004- مالي تشاد النيجر موريتانيا-، من خلال مساعدات لهذه الدول بهدف تعزيز مراقبتها لحدودها ومكافحة الإرهاب والقضاء على قواعده بأراضيها، وتثمينا للإنجازات التي حققتها، تم ترقية هذه المبادرة الى شراكة استراتيجية لمكافحة الارهاب عبر الصحراء، كما تم توسيع هامش الدول المنخرطة، فتم رصد امكانات اساسية لإنجاح هذه الشراكة وتطويرها.

ارتباطا بالتنافس الدولي حول المنطقة، اعتبرت فرنسا هذه التحركات تحجيما لدورها وهامش تحركاتها- بما تعد حديقة خلفية لها بناء على استعمارها التقليدي والارتباط اللغوي مع دول المنطقة-، فعززت من شركاتها وتحالفاتها مع دول المنطقة، وكانت ذروة تحركاتها تدخل قواها بمالي -بناء على شرعية مجلس الامن- للحيلولة دون ترسيخ الحركات الارهابية لوجودها بالبلد بعد سيطرتها على الشمال 2012 ومزاعم من تحركها للجنوب، فعملت باريس على تطوير رقابتها الامنية على الإقليم في إطار عملية سرفال، وستطور هذه الحملة في اطار واسع شمل دول الساحل والصحراء، فيما اطلق عليه عملية برخان منذ 2014 والتي وسع نطاقها الجغرافي من بعدها المحلي إلى الإقليمي، ليشمل مالي موريتانيا وبوركينافاسو والنيجر والنيجر والتشاد 3000 جندي لتأمين منطقة الساحل ومواجهة تهديد هذه الحركات.

يحمل المشجع الثالث صفة «الإلترا»



Rihanat_No44 modif 1.indd 34-35
11/02/2018 23:57:27

ينضاف لهذه التحالفات، عمليات بعثات الاتحاد الأوروبي وبعثات الأمم المتحدة من اجل تامين المنطقة وتعزيز السلام بالدول الهشة واصلاح قطاع الامن والقضاء على الحركات الارهابية، ومحاولات الدول الإقليمية لمواجهة هذه التحديات في إطار مجموعة دول الساحل الخمس؛ تشاد، مالي، موريتانيا وبوركينافاسو، لمكافحة الإرهاب وأنشطة الجريمة المنظمة العابرة للحدود، وتحركاتها لتأسيس قوة اقليمية للتصدي لها.

بالمحصلة، تتوخى هذه التحالفات -المتعددة الأبعاد والإطارات المختلفة التوجهات- تأمين المنطقة واستقرارها، حيث تدافع كل هذه القوى عن البعد الامني ومواجهة التهديدات الأمنية بالإقليم، ووضع حد لتحدي الحركات الجهادية ومكافحة الإرهاب والجريمة المنظمة، إنها تحالفات مضادة تسعى لتفكيك التحالفات الظرفية للحركات الجهادية.

ختاما، يُعد ضعف وهشاشة الدول بالإقليم، المحرك الأساسي لتمدد الحركات الإرهابية وتنامي الجريمة المنظمة العابرة للحدود، حيث يحتل هذا العامل صدارة العوامل التي تساهم في ظهورها، فتستغل هذه المنظمات وجود مساحات شاسعة تمتاز بضعف حضور أجهزة الدولة من اجل القيام بأعمالها و تداريبها، كما تركُن لتحالفات ظرفية لترسيخ وجودها وتقوية صفوفها، ويظل الرهان الحقيقي لفهم هذه الظاهرة تفكيك تحالفاتها وتفسير العوامل المؤدية للسقوط في مستنقعها.■



المغرب بين الخيارين الإفريقي و المغاربي



المختار بنعبدلاوي

لا أتمنى أن نكون أمام مفترق الطرق بين اتحاد المغرب العربي من جهة وبين إفريقيا من جهة أخرى. فالخياران والرؤيتان كلاهما أساسيتان بالنسبة للمغرب، ولا يمكن أن نتخيل أحدا يطرح عليك السؤال: هل تفضل أن تسير بالقدم اليمنى أو اليسرى؟ فالسير لا يمكن أن يكون إلا بقدمين. لكن، لكل عمل مقدمات يجب أن يتأسس عليها، وأحيانا دون وجود هذا الترتيب، وهذه المقدمات قد لا نصل إلى النتيجة التي نريد. فنحن في الحقيقة في الحاجة بالمغرب إلى سياسة وإلى مشروع تنموي يخدم إفريقيا كما يخدم اتحاد المغرب العربي، وهذا يقتضي إمكانيات ضخمة، فمهما كنا متفائلين، فإن وضع المغرب لا يسمح بإنتاج سياسة إفريقية بالمعنى الحقيقي والفعلي، لا من حيث القدرة على الاستثمار، ولا من حيث المنافسة، ولا من حيث الموارد الممكنة أو الخبرات.

إن المقدمة أو المدخل الموضوعي في الحقيقية والواقعي لكل سياسة إفريقية هو قاعدة مغربية ومرجعية مغاربية مكتملة، لكن الملاحظ والغريب في الأمر أنه كلما كانت هناك مساع أو محاولات لبلورة رؤية مغاربية مندمجة منذ حوالي مائة سنة، إلا ويأتي ما يسميه «آدم سميث» باليد الخفية التي تضرب أخماسا بأسداس، وتفكك الطبخة إلى عناصرها الأولية. وهنا أريد أن أشير -إشارة صغيرة- إلى أن المشكل المغاربي في الحقيقة هو مشكل مغربي جزائري يجب أن نعترف بذلك، ليبيا كانت طرفا من الأطراف في وقت معين، لكن ليبيا انسحبت، وبالتالي فالمشكل المغربي الجزائري عقبة أمام سياسة مغاربية متوسطية في حوار شمال شمال، وكذا خمسة زائد خمسة مع الدول الأوربية جنوب المتوسط ، وأيضا في العلاقة مع دول المشرق العربي ، والعلاقة مع إفريقيا.

في الحقيقة، العائق الأساسي بين المغرب و الجزائر تفاقم، فهو عائق لا يمكن النظر إليه من زاوية التضارب في المصالح، ولكن هناك حساسيات مسكوت عنها في اللاشعور الحكومي والشعبي الجزائري والمغربي؛ أول حساسية تم ترويجها - بدور استعماري فرنسي - هو أنه في الوقت الذي كان فيه الأمير عبد القادر الجزائري بأمس الحاجة إلى دعم الدولة المغربية، أن المغرب تخلى عنه وتخلى عن الثورة الجزائرية وهي لا تزال في بدايتها، بالطبع عندما نعود إلى هذه المرحلة، وبشكل سريع سوف نجد أن المغرب كان مهددا هو نفسه بالاستعمار الفرنسي، وأن المغرب تلقى ضربات متعددة، وأن أجزاء كبيرة جدا من الأراضي المغربية قد احتلت، ورغم ذلك كان هناك تمايز واضح عندما نعود إلى الوثائق والأدبيات في تلك المرحلة.

كان علماء فاس متضامنين الثورة الجزائرية، ومع إبقاء الدعم للأمير عبد القادر الجزائري مهما كان الثمن، بينما كان للسلطان المغربي أولويات أخرى، وهي أمن الدولة المغربية وسلامة الحدود،

Rihanat_No44 modif 1.indd 36-37
11/02/2018 23:57:27

وبالتالي كان هنالك نوع من التمايز، ولكن العمق الشعبي والديني المغربي كان مع الجزائر، ولذلك ثم احتضان ما يسمى بالمهاجرين الجزائريين الذين أتوا بعد أسر الأمير عبد القادر، والذين استقبلوا في المغرب، و أصبحوا في ما بعد من أكبر رجال الدولة وأقربهم إلى البلاط، بمعنى أن المغاربة لم يكونوا يميزون في ذك الوقت بينهم وبين الجزائريين. فمن السذاجة أن نعتبر أن الأطماع في الصحراء المغربية بدأت في عهد بومدين ما بين 1974 و 1975م.

حقيقة الأمر أن احتلال أجزاء من التراب المغربي من طرف فرنسا، عندما كانت تعتبر الجزائر جزء من الدولة الفرنسية، وهي أجزاء كل من «الساورة» و «الـــداورة» و «حـاسي بيضة» و «تيندوف»، الهدف منه كان وصول فرنسا إلى المحيط الأطلسي؛ فمشروع فرنسا هو الوصول إلى المحيط الأطلسي، وما أوقف هذا المشروع هو استدعاء السفير الفرنسي لدى اسبانيا في ذلك الوقت، لأن التوافق الدولي كان يدور حول جعل الصحراء المغربية لاسبانيا والجزائر لفرنسا، وبالتالي فما نراه اليوم وما يبدوا لنا مشروعا جديدا، فهو في الحقيقة هو مشروع قديم، وهذا جزء من المسكوت عنه سياسيا.

لابد من الإشارة في هذا السياق إلى التفاعل الشعبي مع المقاومة الجزائرية، وذلك عند استحضار مبادرة عبد الكريم الخطابي من القاهرة التي أسس على إثرها جيش تحرير المغرب العربي الذي يضم كل أبناء المغرب العربي مغاربة وجزائريين وتونسيين من أجل مقاومة الاستعمار الفرنسي. هذه اليد الخفية هي في الحقيقة هي نتاج أسافين، وسأتحدث بشكل سريع وموجز عن هذه الأسافين المتحكمة في التدبير السياسي للعلاقة بين المغرب و الجزائر.

في الحقيقة الإسفين الأول هو ما روجته فرنسا مباشرة بعد منح الاستقلال للمغرب ولتونس هو أن فرنسا تريد أن تخفف الضغط على الجيش الفرنسي، وتريد من الجيشين المغربي والتونسي أن يحميا الحدود لوقف الدعم والتكامل الذي كان بين قوى التحرير في المغرب والجزائر وتونس، وللأسف أن ما روجت له آنذاك جريدة «لوموند» والصحافة الفرنسية صدقه عدد من قادة الثورة الجزائرية، بما فيهم القيادة العليا لجبهة التحرير الجزائرية، واعتبروا أن موافقة المـغـرب وتـونـس عـلى الاستقلال هو بمثابة خنجر في ظهر الثورة الجزائرية، وهـي ترسبات تاريخية أدينا ثمنها كمغاربيين.

الإسفين الثاني حادثة اختطاف طائرة تحمل قيادات جبهة التحرير الجزائرية، بعد لقائهم مع الملك محمد الخامس في ذلك الوقت، وبطبيعة الحال كان هناك من يصطاد في الماء العكر، ومن يسعى إلى إعطاء الانطباع أن المغرب أو بعض مكونات المغرب، ربما كانت متواطئة في هذا الجانب، وللأسف عندما نناقش مع بعض أصدقائنا الجزائريين وبعض الشباب الجزائريين نجد أن هذه الأوهام تم الترويج لها بشكل في الساحة الإعلامية الجزائرية، وتم تعبئة نوع من الرأي العام المعادي أحيانا للمغرب انطلاقا من أوهام تقدم على أنها حقائق تاريخية.

تجعل هذه الأوهام التاريخية المغرب



ملف العدد : المغرب وإفريقيا

والجزائر أمام خيارين، الأول أن يختاروا مصيرا مشتركا، كما انتبهت إلى ذلك فرنسا وألمانيا متأخرتين، وأن مفتاح بناء أوروبا هو علاقات ألمانية فرنسية، و الاختيار الثاني أن تتعصب وتتطرف كل دولة لمشروعها الخاص على حساب الدولة الأخرى، كما حصل بين فرنسا وألمانيا في فترة محددة، فخسرتا كثيرا نظرا لذلك. فالمغرب حقيقة وقع في مطب صعب سنة 1958م، كان بين خيارين أحلاهما مر، إما أن يستعيد إرادته وترابه وسيادته على أراضيه التي ضمتها فرنسا لصالح الجزائر، وفي هذه الحالة سيتهم المغرب أنه يعترف بالسيادة الفرنسية على التراب الجزائري، وبالتالي يعترف بالطبيعة القانونية الوطنية والدولية للاحتلال الفرنسي في الجزائر، أو أن المغرب سوف يرفض ترسيم هذه الحدود، لعدم اعترافه بالسلطة الفرنسية في الجزائر، ومعنى ذلك المغامرة والمقامرة بفقدان جزء كبير من أراضيه.

هما خياران كما قلت أحلاهما مر، ولن أقول للأسف لأن الخيار المنطقي والعقلاني الذي كان يُفترض أن يُتخذ هو الـذي أخـذه المغرب، حيث رفض تسطير الحدود مع الاستعمار الفرنسي في الجزائر، وكان جزء من قيادات جبهة التحرير الجزائرية يعترف بذلك « القايد الحسين أيت أحمد « حتى نهاية حياته، فقد كـان يعترف بحقوق المغرب في الصحراء الشرقية، ولا أخفيكم أنه ربما كان الانقلاب على «بن بلة» يكمن وراء ذلك، لكن ما حصل في الحقيقة هو أن هذا الموقف المغربي الذي كان يجب أن يُستثمر للتقليل من أهمية الحدود، والتركيز على بناء الاتحاد المغرب العربي، للأسف أدى إلى حرب المال وحرب الرمال أدت إلى الفقدان المتزايد لثقة بين هذه البلدان، وأدى إلى تعميق الحس الأمني وإعطاءه الأولوية على الحس السياسي، فما هو سيء الآن في العلاقات المغربية الجزائرية هو أن البعد الأمني يأتي أولا وثانيا وثالثا، وبعد ذلك يمكن أن نفكر في البعد السياسي أو البعد الثقافي.

تعتبر الحرب الباردة بين المغرب و الجزائر من أهم الإكراهات التي عمقت فقدان الثقة بين البلدين، وبالتالي أجهضت كل المحاولات النظر إلى المستقبل بشكل هـادئ ومنطقي وعـقـلاني، فالجزائر كانت تؤمن بمغرب الشعوب، وكانت تؤمن بالاشتراكية، وأن المغرب العربي سوف توحده الشعوب، وكانت تنظر إلى النظام السياسي في المغرب على أنه محافظ ومحسوب على الولايات المتحدة الأمريكية والغرب. في المقابل المغرب كان ينظر إلى الجزائر كخطر كامن، كنموذج سياسي لدولة تسعى إلى التغير ولا تعترف بالحدود، وتسمي المغرب العربي آنذاك بمغرب الشعوب، فهذه الفترة التي ظلت عقودا من الزمن أجهضت إمكانية بناء أي إستراتيجية متوسطية أو عربية أو إفريقيا، لأن إفريقيا كانت موضوعا لحروب أهلية متعددة بسبب الصراع الدولي أنداك.

كان العالم العربي يعيش على إيقاع توتر العلاقة بين المغرب و الجزائر، إنصافا للتاريخ، والآن المعطيات السياسية أصبحت واضحة؛ فالرئيس «بومدين» لم يهتم كثيرا ولم يكن المبادر إلى افتعال قضية الصحراء في الخلاف المغربي الجزائري، خصوصا بعد أن وافق المغرب ربمـا سنة 1970 على ترسيم الحدود، وعلى وقف المطالب الحدودية، دون تحديدها بشكل واضح. فالموقف الرسمي الجزائري في بداياته الأولى كان يدافع عن كل قـرار يتخذه الشعب المغربي، ويستكمل به وعبره سيادته. لكن ما حصل بعد ذلـك أن الرئيس بوتفليقة في علاقته مع الرئيس القدافي في ذلك الوقت، هما من دفعا بقضية الصحراء إلى الواجهة.

بعد أن نجح بوتفليقة في إقناع القدافي باستعمال مبرر الصحراء في ذلك الوقت كأداة للحرب الباردة، و كنموذج كان يحلم به أنداك القدافي في المجتمعات العربية و المغاربية بشكل عام، للأسف فإن إدخال مسألة الصحراء كعنصر في الصراع الإقليمي أدت إلى إحداث تباعد كبير جدا، وإلى تضارب واضح في المصالح، وسوف تتحول إفريقيا التي كانت عمق مغاربي وعمق عـرب؛ نتذكر موقف إفريقيا في حـرب 1973 م، حيث أن أغلب الدول الإفريقية سحبت اعترافها بإسرائيل، وأخـذت مواقف إلى جانب القضية العربية، وكانت منسجمة تماما سواء في إطار حركة عدم الانحياز أو في إطار علاقتها بالمغرب والجزائر. للأسف فتوتر العلاقة بين المغرب و الجزائر حول

Rihanat_No44 modif 1.indd 38-39
11/02/2018 23:57:28

الاتحاد الإفريقي من أداة تنموية إلى أداة لإعادة إنتاج الصراع.

يمكن أن نقول أن الإسفين الأخير شديد التعقيد، وعسير الفهم، وهي واقعة مراكش سنة 1994 م التي أدت إلى إغلاق الحدود بين المغرب والجزائر. فالمغرب بلد يضع السياحة ضمن أولوياته الاقتصادية، ما جعل المغرب سنوات التسعينات قادر على استقطاب ما يقرب مليون سائح جزائري - وهي يمكن أن نقول حقيقة مضخة أوكسجين أساسية بالنسبة للمغرب - . ففي هذا التوقيت الأساسي والمهم نتفاجأ أن المغرب أعلن عقب 48 ساعة تقريبا من واقعة مراكش سنة 1994 أنه فرض التأشيرة على الجزائريين، وذلك قبل حتى أن يعتقل المعتدون، في وقت كان المغرب هو المستفيد من جاذبيته السياحية ومن الرواج التجاري والاقتصادي بين البلدين، وبالطبع فإن قرار «الشاذلي» في هذا السياق المتمثل في وضع قضية الصحراء على الجانب، وتنمية العلاقات الاقتصادية والسياسية المغاربية سوف يجد نفسه معاقا أمام واقعة مراكش، وهو ما أعطى للمؤسسة الأمنية الجزائرية الفرصة لكي ترد الصاع صاعين كرد فعل على تطبيق المغرب للتأشيرة.

يمكن أن نقول أن واقعة مراكش قطعت شعرة معاوية، و أدخلت المغرب و الجزائر في فترة التهييج الاجتماعي، ما جعل قضية الصحراء تعود إلى الواجهة، هذه الاعتبارات لم تسمح للقطب المغاربي بأن يتحول إلى قطب تنمية. بطبيعة الحال كان المغرب دوما يدافع عن مصالحه و ترابه، بينما تتحمل الدولة الجزائرية المسؤولية الكبرى في تغذية الصراع، ما أدى إلى غياب سياسة إفريقية مغاربية منسجمة. فلا يمكن أن نعتبر بأن الخيار المغاربي يمكن أن يكون خيارا بديلا عن الخيار الإفريقي، ولا الخيار الإفريقي بديلا عن الخيار المغاربي، لأننا بحاجة إليهما كلاهما.

المشكل هو أننا كمغاربة مجتمعا ودولة لا نملك الإمكانيات المادية و التفافية التي توفر لنا فرص الاستثمار والتأثير والمشاركة في العملية التنموية بشكل كاف في إفريقيا، وأن مثل هذا النجاح يتطلب تنسيقا واندماجا مغاربيا ليس فقط في اتجاه إفريقيا، ولكن كذلك في الحوار المتوسطي خمسة زائد خمسة أو في اتجاه العالم العربي، المسألة الأكثر خطورة، هو أن المشكل لازال يتفاقم بدل أن يتراجع، وأن رفض الدولة الرسمية في الجزائر للإصلاحات والنظر إلى مصالح الشعب الجزائري هو تهديد حقيقي ليس فقط الجزائر، وإنما للمنطقة المغاربية عموما.

فنحن نعلم اليوم أن الجيش في الجزائر الذي كان صاحب القرار الأساسي لم يعد في هذا الدور بعد أن تم تقليم أظافره. كما أن النظام الجزائرية لم يسمح بظهور رؤوس تضمن استمرارية الدولة واستقرارها - بعد سنوات من مرض الرئيس منها -، وإذا لم تكن هناك عملية منتظمة لانتقال السلطة السياسية ولضمان استقرار الجزائر، فإن الجزائر سوف تكون قنبلة موقوتة لنفسها أولا، و للمنطقة المغاربية ثانيا.

نؤمن في مركز مدى للدراسات و الأبحاث الإنسانية أن ما يمكن أن يحلحل هذا الوضع المتشابك والمعقد على مستوى منطقة المغرب العربي هو أن تعطى للشعوب وللمجتمعات العربية الفرصة لكي تقول أن التنمية لا يمكن أن تتحقق إلا في ظل الاستقرار، ولا يمكن أن تتحقق إلا في إطار البناء السياسي الديمقراطي، ولا يمكن أن تتحقق كذلك إلا في إطار المبادئ الخمسة التي أعلنها الرئيس التونسي المنصف المرزوقي، أي حرية التنقل وحرية التجارة والحق في المواطنة والمشاركة السياسية بين بلدان المغرب العربي لأن هذه المبادئ الخمسة هي ما يمكنه أن يفتح أفق الإصلاح السياسي في المنطقة، وفي نفس الوقت أن يضع مرتكزات للتنمية الاقتصادية.■

«الاستراتجية المغربية في إفريقيا: الرهانات و التحديات»

عبد العالي حور

لقد إ ختار المغرب على مستوى سياسته الخارجية و علاقاته الدولية منهج تنويع شركائه، حيث لم يرهن علاقاته مع طرف واحد، و لم يسعى إلى أن تكون لصالح طرف على حساب طرف آخر، بل إن غاية التوازن و الانسجام في علاقاته الخارجية هو الخيط الناظم لها. و هذا الخيار يجد أساسه في تصدير الدستور – الذي يعتبر جزء لا يتجزأ من الدستور- المغربي لسنة 2011 الذي أكد على التزام المغرب ب:

- العمل على بناء الاتحاد المغاربي كخيار استراتيجي ؛

- تعميق أواصر الانتماء إلى الأمة العربية والإسلامية، وتوطيد وشائج الأخوة والتضامن مع شعوبها الشقيقة؛

- تقوية علاقات التعاون والتضامن مع الشعوب والبلدان الإفريقية، ولاسيما مع بلدان الساحل وجنوب الصحراء؛

- تعزيز روابط التعاون والتقارب والشراكة مع بلدان الجوار الأورو-متوسطي؛

- توسيع وتنويع علاقات الصداقة، والمبادلات الإنسانية والاقتصادية والعلمية والتقنية والثقافية مع كل بلدان العالم ؛

- تقوية التعاون جنوب-جنوب؛

تنطلق الإستراتجية المغربية في إفريقيا من المحددات الأساسية للسياسية الخارجية المغربية، والتي تتمثل أساسا في الدفاع عن الوحدة الترابية للمغرب، و في تعزيز الشراكة الاقتصادية و الاجتماعية و الإنسانية، و في الدفاع عن القضايا العادلة الإنسانية.



وتتأسس على عدة مقومات يمكن إيراد بعضها في :

- الاحترام المتبادل للسيادة و سلامة الاراضي (عدم دعم المغرب لأية حركة انفصالي في عموم إفريقيا)

- عدم الاعتداء على الغير.

- عدم التدخل في الشؤون الداخلية.

- المساواة و المنافع المتبادلة و الدفاع عن المصالح المشتركة و الخاصة بالدول الإفريقية أمميا و أمام القوى الكبرى.

ينبني المنظور الاستراتجي المغربي في علاقته بالقارة الإفريقية على ركيزتين

Rihanat_No44 modif 1.indd 40-41 11/02/2018 23:57:28

اثنتين : أولـهـما تطوير العلاقات الاقتصادية و التجارية مع دول القارة بالاعتماد على مقوماتها و قدراتها الذاتية بهدف أن تستفيد شعوب القارة ن خيراتها و ثرواتها، و الثاني ترسيخ العلاقات التاريخية التي تربط المغرب بشعوب ودول القارة وخاصة دول غرب افريقيا.

أولا: المغرب و الدفاع عن المصالح الإفريقية

إن كان المغرب قد غـادر المنظمة الافريقية الشاملة منذ سنة 1984، إلا أن علاقته بدولها لم تنقطع و ظلت تتعزز يوم بعد آخر، بل أن المغرب صادر يدافع عن القارة و عن حقوق شعوبها و دولها في تنمية شاملة و مستقلة بعيدا عن منطق المساعدات المشروطة او المجانية، و ذلك في مختلف المحطات الدولية و الإقليمية، فإفريقيا أصبحت حاضرة في مختلف الخطابات الملكية سواء الموجهة إلى الداخل، أو تلك التي تلقى في القمم و المؤتمرات الدولية و الاقليمية، فقد قال الملك محمد السادس في خطابه أمـام المنتدى المـغـربي الإيـفـواري في أبيدجان سنة 2014 إن « **إن إفريقيا قارة كبيرة، بقواها الحية وبمواردها وإمكاناتها. فعليها أن تعتمد على إمكاناتها الذاتية. ذلك أنها لم تعد قارة مستعمرة. لذا، فإفريقيا مطالبة اليوم بأن تضع ثقتها في إفريقيا. فقارتنا ليست في حاجة للمساعدات، بقدر ما تحتاج لشراكات ذات نفع متبادل. كما أنها تحتاج لمشاريع التنمية البشرية والاجتماعية أكثر من حاجتها لمساعدات إنسانية».**

يمكن اعتبار هـذه الـدعـوة التي وجهها ملك المغرب بمثابة إحياء لمطلب ممثلي دول العالم الثالث سنة 1968 خلال القمة الثانية لمؤتمر الامم المتحدة للتجارة و التنمية الاونيكتاد بنيودلهي trade not aid تجارة لا مساعدة. وهو التوجه الذي أعاد التأكيد عليه الملك محمد السادس في خطاب القاه في افتتاح أشغال "قمة العمل الإفريقية" التي انعقدت على هامش اشغال الدورة الثانية والعشرين لمؤتمر الأطراف في اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشأن تغير المناخ المؤتمر العالمي (كوب 22) بمراكش، حيث أكد أن المملكة المغربية "عازمة على تعزيز مساهمتها من أجل الدفاع عن المصالح الحيوية للقارة، إلى جانب البلدان الشقيقة، وقريبا من داخل الاتحاد الإفريقي". وقال في هذا السياق "وإذا كان عملنا الذاتي من أجل تحقيق مصالحنا حاجة ملحة، فإن دعوة شركائنا الاستراتيجيين للانخراط إلى جانبنا قد أصبح ضرورة».[1]

هذا الخطاب الـذي يمكن اعتباره استمرارا لخطاب الملك أمـام الدرة 59 للجمعية العامة للأمم المتحدة سنة 2014 الذي أكد من خلاله» إن المملكة المغربية، العضو الفاعل في الأسرة الإفريقية والدولية، لحريصة على مواصلة التعاون مع الأمم المتحدة، والمجموعة الدولية، من أجل إيجاد حلول سلمية للنزاعات، بتطوعها للمشاركة في قوات حفظ السلام الأممية، كما هو الشأن حاليا في الكونغو الديمقراطية و الكوت ديفوار، أو لإيجاد تسوية تصالحية على غرار وساطتنا لحل أزمة الدول المجاورة لنهر «مانو». كما يعتز المغرب بالمساهمة في دعم الجهود الإفريقية، لكسب رهانات السلم والتنمية، والتقدم والحكم القويم. وذلك ما تطمح إليه مبادرة «النيباد» التي ندعو المجتمع الدولي إلى دعمها، لأن أهدافها الطموحة تتجاوز طاقات البلدان الإفريقية، وتحتاج لموارد هامة، بما في ذلك إيجاد حلول سخية وناجعة لمعضلة الديون كما بـادر المغرب إلى ذلك».

ثانيا: ركـائـز الإسـتـراتـجـيـة الإفريقية للمغرب

تستند الاستراتيجية الافريقية للمغرب على أسس مختلفة، منها دعم التنمية المستدامة و تطوير المهارات البشرية وإشراك القطاع الخاص، وكذا الفاعلين الجدد في نقل المعرفة وتبادل الخبرات ومن أجل تحقيق ذلك، تستند هذه الاستراتيجية على الانفتاح التجاري و التعاون و تشجيع الاستثمارات، فقد أصبح المغرب خلال بضع سنوات، ثاني أكـبر مستثمر في الـقـارة بعد جنوب إفريقيا، حيث يطمح المغرب، الذي يقع في مفترق طرق الأسـواق العالمية، إلى أن يصبح منصة إقليمية موجهة نحو إفريقيا.

بالإضافة لعلاقاته المتميزة مع شركائه الأفارقة، يتوفر المغرب على مزايا قل نظيرها منها تحين مناخ الأعمال وصورة البلد، مما جعل منه نموذجا لدول جنوب الصحراء بالنظر لتجربته الرائدة في ميادين حيوية من قبيل تحديث الدولة وإرساء مبادئ الحكامة الجيدة، و وضع استراتيجيات قطاعية وإنجاز مشاريع ضخمة في مجال البنية التحتية.[2] إلى جانب تجربة المغرب في إصلاح الحق الديني و إستراتجيته الاستباقية في محاربة الإرهاب و التصدي لمخططاته. وعموما فـإن هـذه الإستراتجية يتم تصريفها عبر ثلاثة مسارات ديبلوماسية أساسية: الاولى اقتصادية و الثانية أمنية إنسانية و الثالثة روحية .

أ - الدبلوماسية الاقتصادية:

1 - الاهمية العالمية للقارة الافريقية :

أصبحت إفريقيا في السنين الأخيرة بفعل عـدد مـن العوامل السياسية و الاجتماعية (مسلسل الانفتاح الديمقراطي وظهور طبقة متوسطة

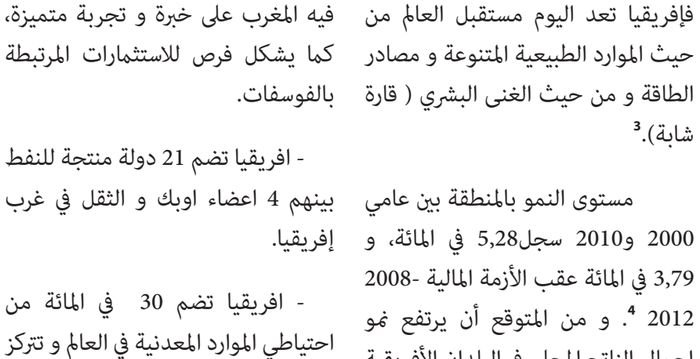

جـديـدة، ونخب صـاعـدة براغماتية غير مؤدلجة ، مقارنة مع النخب التي قادت هذه الدول بعد استقلالها تهتم بمستقبل ومصالح بلدانها. و بداية تواري ظاهرة الانقلابات والانقلابات المضادة التي وصمت القارة طيلة عدة عقود، نتج عنها استقرار أمني، و إن كان نسبي و بدرجة تختلف من منطقة الى أخرى ، بالإضافة الى تحسن أسعار المواد الاولية و تحسن مناخ الأعـمال، فقد بدأت القارة تعرف نموا اقتصاديا قويا جعلها في قلب المعترك الاقتصادي الدولي، و ارضية للتسابق و التنافس بين القوى الكبرى. فإفريقيا تعد اليوم مستقبل العالم من حيث الموارد الطبيعية المتنوعة و مصادر الطاقة و من حيث الغنى البشري (قارة شابة).[3]

مستوى النمو بالمنطقة بين عامي 2000 و2010 سجل5,28 في المائة، و 3,79 في المائة عقب الأزمة المالية -2008 2012 [4]. و من المتوقع أن يرتفع نمو إجمالي الناتج المحلي في البلدان الأفريقية جنوب الصحراء إلى 4.4 في المائة عام 2016، وإلى 4.8 في المائة عام 2017. كما من المتوقع أن تستمر كوت ديفوار وإثيوبيا وموزامبيق ورواندا وتنزانيا في نموها بمعدل 7 في المائة أو أكثر سنويا بين عامي 2015 و2017، يحفزه في ذلك الاستثمار في قطاعي الطاقة والنقل إلى جانب الإنفاق الاستهلاكي والاستثمار في قطاع الموارد الطبيعية. [5] كما تتوفر افريقيا على ثـروات طبيعية معدنية ومائية هائلة ف11 في المائة من المياه العذبة تتواجد في إفريقيا و الصحراء الكبرى، تضم اكبر مستودع للمياه في العالم. و تتوفر افريقيا على 13 حزانا جوفيا من بين الحزانات 38 الأكبر في العالم [6]، ما يشكل فرص استثمارية واعدة خاصة في القطاع الزراعي الذي يتوفر فيه المغرب على خبرة و تجربة متميزة، كما يشكل فرص للاستثمارات المرتبطة بالفوسفات.

- افريقيا تضم 21 دولة منتجة للنفط بينهم 4 اعضاء اوبك و الثقل في غرب إفريقيا.

- افريقيا تضم 30 في المائة من احتياطي الموارد المعدنية في العالم و تتركز وسط و جنوب القارة السمراء.

إن الموقع الجغرافي للمغرب باعتباره بوابة افريقيا، و يطل على البحر الابيض المتوسط الذي تمر منه خمس التجارة

الهوامش

1 - انظر نص الخطاب الملكي على الرابط: http://www.maroc.ma/ar/jll-lmlk-ywjh-khtb-smy-l-qm-lml-lfryqy/%D8%AE%D8%B7%D8%A7%D8%A8%D8%A7%D8%AA-%D9%85%D9%84%D9%83%D9%8A%D8%A9

Rihanat_No44 modif 1.indd 42-43 11/02/2018 23:57:29

العالمية يمكن أن يساهم، و أن يستفيد من هذه الطفرة التنموية التي تعرفها إفريقيا الآن .

ثانيا: الرهانات الاقتصادية للإستراتجية الإفريقية للمغرب

يعتبر البعد الاقتصادي إحدى الدعامات التي تقوم عليها العلاقات الديبلوماسية ، و يراهن المغرب على أن يكون نقطة عبور للاستثمارات الأوروبية والأميركية والخليجية، خاصة انه يرتبط بعدة اتفاقيات للتبادل الحر (أوربا أمريكا مثلا)، مما يجعله لكافة شركائه التجاريين ومستثمريه منفذا لسوق من مليار مستهلك، و يمثل ناتجها الداخلي الخام 60 في المائة من الناتج العالمي.

رغم أن المغرب يرتبط بالدول الإفريقية، وخاصة الغربية منها بأزيد من 500 اتفاقية إلا أن العلاقات الاقتصادية مع افريقيا جنوب الصحراء لازالت دون المستوى المطلوب، فإفريقيا تنعتبر رابع حليف تجاري إقليمي للمغرب فقط؛ بما نسبته 6.5% فقط من حجم التجارة الخارجية العامة للمغرب؛ في حين تبقى أوروبا الحليف التجاري الأول بأكثر من 62% من مجموع التبادلات، ثم آسيا بـ 19%، ثم أميركا بـ12 %. دون ان ننكر التحسن المهم الذي عرفته خلال العقد الاخير حيث انتقل حجم المبادلات التجارية بين المغرب و افريقيا من 10 الى 37 مليار درهم خلال الفترة ما بين 2004 و 2014، و وصلت الصادرات المغربية نحو افريقيا جنوب الصحراء 11,7 مليار درهم سنة 2013 مقابل 2‘2 مليار درهم سنة 2003 . [7]

كما يعتبر المعرب ثاني اكبر مستثمر افريقي في القارة بعد جنوب إفريقيا في قطاعات كالبنوك والمباني و الأشغال العمومية وتكنولوجيا المعلومات والاتـصـالات و قطاعات أخـرى مثل الفوسفات، ويطمح إلى أن يكون الأول. (تأكيد ملكي لذلك في الرسالة الموجهة الى قمة كيغالي للاتحاد الإفريقي في يوليوز 2016). و في هـذا السياق يندرج إنشاء القطب المالي للدار البيضاء لتوجيه الاستثمارات نحو إفريقيا، وقد تم اختيار هذا القطب من قبل البنك الإفريقي للتنمية من أجل احتضان صندوق إفريقيا 50 الـذي يهدف الى تمكين القارة الافريقية من حيازة اليات مبتكرة من شأنها الرفع من مستوى تعبئة المـوارد و جلب تمويلات خاصة لتنمية، و تمويل مشاريع البنية التحيتة في إفريقيا.[8]

2 - الدبلوماسية الامـنـيـة و الانسانية:

إن العلاقات الاقتصادي التي تجمع المغرب بباقي دول إفريقيا وخاصة الجانب الغربي منها تجعله معنيا بأمن واستقرار هذه المنطقة سياسيا واقتصاديا، لاسيما أنه يعد المستثمر الأول في المنطقة، كما أن نجاحاته الاقتصادية يجب أن تتعزز بدعم الاستقرار السياسي هناك. لذلك عمل المغرب منذ سنوات على المساهمته في عمليات حفظ السلم في كوت ديفوار وجمهورية الكونغو الديمقراطية وإفريقيا الوسطى(التي فقد فيها المغرب هذا الاسبوع عنصرين من قوات حفظ السلام المغاربة)، و قام بجهود في مجال الوساطة بين دول منطقة «نهر مانو»،(تضم كل من عنيا ليبريا و سيراليون و ساحل العاج)، والوساطة بين أطراف الأزمة المالية خاصة بين الحكومة و الحركة الوطنية لتحرير «أزواد»، و احتضن لقاءات أطراف الأزمة الليبية ، كما ساهم في عملية إعادة البناء بعد انتهاء الصراع، بكل من غينيا وسيرا ليون ومالي وغينيا بساو.

تتركز جهود الدبلوماسية الأمنية للمغرب على محاربة الجماعات الارهابية التي تنشط بمنطقة الساحل و الصحراء، وهو أمر نابع من رؤية المغرب لتداخل وتشابك الأنشطة الإرهابية بالمنطقة، و التنسيق الذي يتم بين جميع مكوناتها والتهديد الذي تشكله على أمن المنطقة برمتها. و تعهد المغرب خلال الزيارة الملكية لنيجيريا بمساعدة هذه الأخيرة في محاربة جماعة «بوكو»، و اجتثاثها عبر المدخل الأمني و الديني، خاصة بعد فشل التحالف الذي شكل من دول حوض بحيرة «التشاد» لمواجهة الجماعة الإرهابية.كما تنشط في نيجيريا جماعات متطرفة أخرى أهمها الحركة الإسلامية في نيجيريا أو ما يسمى بحزب الله النيجيري IMN، و هي حركة مسلحة تنشط منذ أكثر من 40 سنة، و تتهم بأنها تدعو إلى النمط الإيراني لإقامة دولة إسلامية في شمال البلاد. و في الجانب الإنساني تعتبر المبادرة التي قام بها المغرب في ملف الهجرة بتسوية وضعية المهاجرين المنحدرين من إفريقيا جنوب الصحراء مبادرة ذات دلالة قصوى و اهمية كبرى، بالإضافة الى تقديم المساعدة للمهاجرين الذين طردتهم الجزائر نحو النيجر في نهاية سنة 2016.

3 - الدبلوماسية الروحية:

إن العلاقات التجارية التي كانت تربط المغرب بـدول افريقيا جنوب الصحراء جعلت الطرق الصوفية المغربية تنسج علاقات راسخة مع شعوب دول الساحل و الغرب الإفريقي[9]، حيث قامت بنشر الإسلام السني المعتدل في هذه المنطقة ، و لازالت ترتبط بالزوايا الأم بروابط متينة، فيعتبر ضريح الوالي أحمد التيجاني بمدينة فاسم حجا لأتباع الطريق التيجانية الذين يقدر عددهم بحوالي 40 مريدا عبر مختلف دول منطقة الساحل، كما أن إنشاء معهد محمد السادس لتكوين الأئمة، والذي بـدأ يستقبل طلبة من دول افريقيا جنوب الصحراء، هذا المعهد يهدف إلى نشر قيم الإسلام الوسطي السمح، والتعريف بالتجربة المغربية في مجال إصلاح الحقل الديني لمواجهة الاسلام المتطرف المتنامي في هذه المنطقة، و لما لا كذلك مواجهة التشيع الذي يعرف انتشارا في المنطقة وخاصة في «نجيريا»، وتعززت هذه الخطة بإنشاء مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة لتعزيز الجانب الروحي في العلاقات المغربية الإفريقية، والحفاظ على طبيعة الإسلام الافريقي كإسلام صوفي سني مسالم يواجه الآن التشيع و الحركات الإرهابية.

التحرك في إفريقيا بالنسبة للمغرب دينياً يستجيب لثلاثة تحديات كبرى: أولها مواجهة الحركات التكفيرية أمثال القاعدة في الغرب الإسـلامـي وكافة فروع السلفية الجهادية التي وجدت في هذه المنطقة الممتدة من موريتانيا إلى الصومال مكانا آمناً ومحضناً متميزاً لأفكارها نظراً لضعف الدولة المركزية بهذه الأقطار، ونظراً للهشاشة الاقتصادية و الاجتماعية لساكنتها. وثانيها مواجهة المد الشيعي، الذي لم تعرفه إفريقيا قطّ في الماضي، بفعل تركيز النظام الإيراني على نيجيريا، بالخصوص، من خلال تقديم حوالي 10 آلاف منحة للطلبة الأفارقة لدراسة العلوم الدينية في الحوزات الشيعية منذ أزيد من عقدين، بالإضافة إلى جمعيات خيرية لتقديم المساعدات الإنسانية كغطاء لنشر التشيع. وثالث هذه التحديات مواجهة القرصنة التي تحاول الجارة الشرقية القيام بها للزاوية التيجانية من خـلال ادعـاءات زائفة ترتبط بمسقط رأس شيخ الزاوية المولود في عين ماضي قرب «الأغواط»، في بداية القرن الثامن عشر، علماً أن مقر الزاوية ومركز إشعاعها وإقامة شيخها ومؤسسها هو مدينة فاس.

ثـالـثـا: الـتـحـديـات الـتـي تواجهها الاستراتجية الافريقية للمغرب:

اذا كانت الاستراتجية الافريقية للمغرب متكاملة الأركـان تأخذ بعين الاعتبار كل الجوانب الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية و الإنسانية و الأمنية، ما جعل سياساته محل ترحيب و قبول من لدن الدول الافريقية جنوب الصحراء حكومات و شعوب ، إلا انها لازالت تواجه بتحديات تقتضي تظافر الجهود و توحيد الطاقات لمواجهتها، خاصة في ظل صعود عدد من التهديدات الجديدة التي من شأنها الإضرار بمصالح الأفراد والجماعات والحكومات، وتأتي هذه التحديات الجديدة على المنطقة في

الهوامش

2 - انظر مجلة المالية العدد 28 غشت 2015 وزارة الاقتصاد و المالية الرباط ص5-4

3 - انظر» التقرير الاقيمي لافريقيا: النتائج و التوصيات الرئيسية»للسكان والتنمية أديس أبابا، أثيوبيا 3 و 4 اكتوبر 2013 ، الامم المتحدة اللجنة الاقتصادية لافريقيا، رقم الوثيقة ECA/ICPD/MIN/2013/2 بتاريخ 9 ستنبر 2013.

4 - voir Rapport 2014 sur le développement économique en Afrique : Catalyser l’ investissement pour une croissance transformatrice en Afrique , UNCTAD/ALDC/AFRICA/2014 publication des Nations Unies2014 p 3.

5 http://www.albankaldawli.org/ar/news/press-release/2015/10/05/africa-h faces-the-challenge-of-sustaining-growth-amid-weak-global-conditions

6 - محمد سلمان طابع «مشكلة المياه في افريقيا: ازمة ادارة لا ندرة» مجلة اراء حول الخليج العدد 109 يوليوز 2016 ص 20-12

7 - انظر مجلة المالية العدد 28 غشت 2015 وزارة الاقتصاد و المالية الرباط ص8- 10

8 - نفس المرجع ص 5

Rihanat_No44 modif 1.indd 44-45 11/02/2018 23:57:30



خضم التحولات السياسية والاقتصادية التي شهدها العالم. هذه الحالة غير المسبوقة من التطورات الأمنية، هي نتيجة لمجموعة من العوامل يمكن حصرها في ثلاث أبعاد وهي:

- **البعد الأول :** ويتمثل في الوجود الإرهـابي في المنطقة الـذي جعل من منطقة الساحل مـلاذاً آمناً وقاعدة لعملياته.

- **البعد الثاني:** ويتمثل في انتشار ظاهـرة الجريمة المنظمة، و تجارة الأسلحة و المخدرات، يقدر برنامج الامم المتحدة الانمـائي عدد قطع السلاح في افريقيا ب 100 مليون قطعة[10] ويبقى انتشار السلاح الليبي في إفريقيا تحديا أمنيا خطيرا يجعل افريقيا جنوب الصحراء تحت شبح التهديد لفترة زمنية مقبلة.

وتشير الدراسات المهتمة [11] إلى أنّ نحو 25 في المائة سنة 2007 و 13 في المائة سنة 2009 من الكوكايين الذي وصل الى اوربا مر عبر دول افريقيا الغربية بقيمة إجمالية 800 مليون دولار أمريكي اي ما نسبته 0,2 من الناتج الداخلي الخام لـدول غـرب و وسـط افريقيا في سنة 2009.

- البعد الثالث هو الهجرة غير الشرعية ،

- و يتمثل البعد الأخير في الفشل البنيوي والوظيفي للدولة في المنطقة و عـدم قدرتها على مراقبة و ضبط حدودها، .

هذا بالإضافة إلى تحدي التنافس الإقليمي و العداء الـذي تكنه بعض الدول للمغرب خاصة الجزائر و جنوب إفريقيا. إن هذه التحديات تفرض على الدبلوماسية المغربية في افريقيا الاشتغال على عـدة واجهات ثنائيا مع الـدول الافريقية او مع الدول الثالثة الشريكة، و في الاطار المتعدد الاطراف سواء من خلال التنظيمات الإقليمية أو الدولية المعنية بـالأوضـاع في افريقيا جنوب الصحراء، لتكريس حفظ الاستقرار و الأمن في المنطقة و ضمانا لمصالح المغرب و مصالح شركائه. ■

الهوامش

9 - Nazarena Lanza « liens et echaanges entre le Maroc et l'afrique subsaharienne » dans Michel Peraldi. D'une Afrique _a l'autre. Migrations subsahariennes au Maroc, Karthala, pp.21-35, 2011

10 - Conférence ministérielle sur le commerce des armes légères, Genève, le 12 septembre 2008

11 -Georges Berghezan « Panorama du trafic de cocaïne En Afrique de l'Ouest » Groupe de recherche et d'information sur la paix et la sécurité Bruxelles 2012 P 6



الدكتور عبدالفتاح فاتحي
الخبير الاستراتيجي في شؤون الصحراء والقضايا الافريقية

الدكتور عبدالفتاح الفاتحي

مكنت عودة المغرب إلى الاتحاد الإفريقي في تقوية نفوذه الإقتصادي واختراق عدد من القلاع

حاورته مجلة رهانات

1 - المحور السياسي:

مجلة رهانات: هل كان خروج المغرب من منظمة الوحدة الإفريقية صائبا عندما اتخذ المغرب هذا القرار في السابق؟ وإذا كان الأمر كذلك، متى أصبح مكلفا، وكيف ذلك؟

إن قراءة السياق التاريخي السياسي للواقع الإفريقي، ولاسيما من داخل منظمة الوحدة الإفريقية يفهم أن تدبير قضية الصحراء لم يكن على قدر الواقعية السياسية، بل كان تدبيرا عاطفيا وموجها بممارسات الحكم الشمولي الذي كان يسود دول القارة الإفريقية بعيد الإستقلال. فضلا عن عدم الانخراط في الممارسات الديموقراطية على مستوى الحكم أو على مستوى التفاعل مع لوائح القانون الدولي والتزامات العلاقات الدولية.

وحيث إن منظمة الوحدة الإفريقية قد خضعت لتوجيهات مسيسة وعاطفية، وكيفت قضية الصحراء خـارج منطق السيادة الترابية للدول، وتعاملت معها بمبدأ تقرير المصير بمعنى الاستقلال. فتناقضت مع المرجعيات التي حاولت تبرير استقلال الصحراء، وخاصة فيما يتعلق بمسألة الحدود الموروثة عن الاستعمار. والتي لا تقر بوجود دولة في اقليم الصحراء، بل حتى إن اسبانيا لم تفد بأنها اغتصبت الصحراء من تنظيم سيادي، ولذلك سلمتها للمغرب بموجب الاتفاقية الثلاثية في 14 نوفمبر 1975.

وتأسيسا لمبادئ منظمة الوحدة الإفريقية القائمة على احترام الوحدة الوطنية للشعوب، ظل عمل المغرب على سمو

Rihanat_No44 modif 1.indd 46-47 11/02/2018 23:57:30

عمل المنظمة وحيادها عن ايديولوجيا مزجت بين حركات التحرر الإفريقية وحركات انفصالية زج بها لتحقيق مآرب استراتيجية.

ولأن هـذه المنظمة انـزاحـت عن الحياد المطلوب لسمو العمل الإفريقي المـشـترك، اضطر المغرب إلى مغادرة المنظمة، بعد تسجيل تطورات متلاحقة أثبتت تشكل لوبي جزائري تحكم في اللجنة الخاصة «ADHOC» من أجل تتبع تطورات نـزاع الصحراء[1]، والتي أوصت في اجتماعها بالخرطوم بتاريخ 23 يونيو 1979، بحق «الشعب الصحراوي» في تقرير المصير عبر استفتاء عام وحر، يعطيه الحق في الاختيار بين الاستقلال التام أو الإبقاء على الحالة العادية، كما اعتبرت أن الاتفاقية الثلاثية لمدريد، لم تكن تتعلق "إلا بتحويل إدارة الإقليم إلى المغرب وموريتانيا".

ومن رؤية انفصالية سطرت توجيهات تم عرضها للتصويت عليها في مؤتمر القمة الإفريقي الذي انعقد بالعاصمة الليبيريةمنروفيا ما بين 17 و 20 يوليو سنة 1979، وبموافقة ثلثي الأعضاء تمت المصادقة على قرار يوصي بوقف إطلاق النار وإجراء استفتاء في الصحراء الغربية [2]. إلا أن هذه القرارات رفضت مغربيا حينما قال وزير خارجيته امحمدبوستة إن «الـقـرارات المتخذة باطلة وأن تلك القرارات شيء والوضع في الميدان شيئا آخر» .[3]

ورغم ذلك، استمر المغرب متشبثا بعضويته، ومتوقعا التزاما حكيما بالميثاق التأسيس لمنظمة الوحدة الإفريقية التي يجب أن تكوينا وسيطا لا طرفا في النزاع، إلى أن تأكد أن حياد المنظمة أعدم عمليا، بعد قبول عضوية تنظيم انفصالي في مخالفة تامة لشروط عضوية المنظمة ولاسيما مضمون المادة الرابعة من ميثاقها .[4]

إلا أن ذلك لم يحد بالمغرب عن تشبثه بالعلاقات الروحية والثقافية والاقتصادية مع الـدول الإفريقية. واستمر حرص المغرب على الحضور ضمن المؤسسات الاقتصادية، فتطورت سياسته الخارجية نحو التطبيع وتجاوز العناد السياسي التي ظلت تحترفه بعض الدول من أجل مصالح سياسية ضيقة من قبيل حسم سباق الهيمنة على المنطقة لم يكن أمام المملكة المغرب سوى الخروج من هذه المنظمة في سبتمبر 1984؛ احتجاجا على قبول عضوية «الجمهورية الصحراوية» في خرق سافر لميثاقها التأسيسي وللوائح القانون الدولي.

استمر حرص المغرب على الحضور ضمن المؤسسات الاقتصادية، فتطورت سياسته الخارجية نحو التطبيع وتجاوز العناد السياسي التي ظلت تحترفه بعض الدول من أجل مصالح سياسية ضيقة من قبيل حسم سباق الهيمنة على المنطقة لم يكن أمام المملكة المغربية سوى الخروج من هذه المنظمة في سبتمبر 1984

ولأن المغرب كـان مكرها في قرار الانسحاب، ولأن بعد أزيـد 3 عقود حدثت تطورات وتغيرات في القارة الإفريقية لا على مستوى نظام الحكم أو على المستوى الاقتصادي، فضلا على أن المغرب ظل شريكا أساسيا للعديد من الدول الإفريقية، وخاصة بعد محمد السادس الحكم بالمغرب حيث أولى عناية خاصة للاقتصاد التضامني والتشاركي في إفريقيا، مما بوأ المغرب لأن ثاني الـدول إفريقيا من حيث الاستثمار في القارة.

وحـيـث إن الـجـزائـر والبوليساريو تماديا في توظيف الاتحاد الإفريقي لصياغة عديد من القرارات المسيسة والماسة بـالـوحـدة الـترابـيـة للمغرب، فلم يكن أمامه بد غير الـعـودة إلى الاتحاد الإفريقي للدفاع عن نفسه سياسيا ولضمان غطاء سياسي يحمي به استثماراته في إفريقيا.

والواقع أن حوافز عودة المغرب لم تكن سياسية ولا براغماتية ولكن من أجل القارة الإفريقية، ولحماية السيادة الوطنية لدولها من النزعات الانفصالية التي هـددت وحـدة الـسـودان ومالي وغيرها من الـدول الإفريقية. وهو ما أشارت إلى الرسالة الملكية إلى القمة الـ 27 للاتحاد الإفريقي بالعاصمة الرواندية كيغالي، بالقول: «إن فرض أمر واقع لا أخلاقي، والانقلاب على الشرعية الدولية، دفعا المملكة المغربية، تفاديا للتجزئة والانقسام».

مجلة رهانات: هل هناك مؤشرات على تململ في مواقف الدول التي أعاد المغرب ترتيب العلاقة معها، فيما يخص قضية الصحراء؟

بكل تأكيد فإن عودة المغرب إلى الاتحاد الافريقي ستجعل العديد من الدول الافريقية تغيير اتجاهاتها السياسية، وأن عـودة المغرب هي جزء من هذا التطور في سياسة العديد من الدول التي كانت إلى وقت قريب تعادي المغرب بسبب قضية الصحراء، حيث لينت مواقف مختلف الدول التي كانت إلى وقت قريب لسان حال الدفاع عـن جبهة البوليساريو في المحافل الدولية.

كما أن عدم اصدار الاتحاد الإفريقي لـقـرارات ضد المغرب في قممه أو في قمم من شركـاء آخرين يمثل عوائد سياسية، فقد مكنت عودة المغرب إلى الاتحاد الإفريقي تقوية نفوذه الإقتصادي واخـتراق عدد من القلاع المؤيدة للخطاب الانفصالي. وقد استقبال الملك محمد السادس للرئيس الجنوب الافريقي والرئيس الأنغولي مفاجأة دبلوماسية كسرت حالة من الـعـداء الدبلوماسي بين المغرب وهذين الدولتين.

مجلة رهـانـات: هناك بعض ردود الفعل الجزائرية الواضحة على توجهات المغرب الاقتصادية الإفريقية، ما هي حدود ردود الفعل هذه؟

عتستشعر الجزائر حجم التأثير الذي يعتمده المغرب من خلال دبلوماسيته الناعمة في إفريقيا وخاصة في إفريقيا الغربية، إذ تُغيب الدبلوماسية المغربية الجدل السياسي بشأن القضايا الخلافية بتهميشها لصالح المصالح التعاونية المشتركة مع الدول الإفريقية.

عدم اصدار الاتحاد الإفريقي لقرارات ضد المغرب في قممه أو في قمم من شركاء آخرين يمثل عوائد سياسية، فقد مكنت عودة المغرب إلى الاتحاد الإفريقي تقوية نفوذه الإقتصادي واختراق عدد من القلاع المؤيدة للخطاب الانفصالي.

ولذلك فبعد عجزها عن عرقلة عودة المغرب إلى الاتحاد الإفريقي، إلا أن ذلك جعلها تفكر في تجريب سبل جديدة، من خلال تنشيط العلاقات التجارية مع دول إفريقيا. حيث احتفلت الجزائر مؤخرا بتصدير أولى الدفوعات من الإسمنت المصنع بالجزائر إلى دول غرب إفريقيا.

وتعمل الجزائر على تعزيز حضور شركاتها بالمجموعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا عبر شركات عمومية مثل سونا غاز واتصالات الجزائر والخطوط الجوية الجزائرية للدول الافريقية، إضافة إلى استثمارات سوناطراك، من خلال القطاع الخاص مثل مجمع سيفيتال وشركة كوندور للتكنولوجيا.

2 - المحور الاقتصادي :

مجلة رهانات : هل جاء طلب المغرب الانضمام لمجموعة اتحاد غرب إفريقيا ردا على فشل المشروع المغاربي أم أنه بـني على أساس مقاربة اقتصادية مستقلة وقائمة بذاتها؟

إن الرهان الإقتصادي يبقى غاية كل المغاربيين، لكن تعويق مسار الاتحاد المغاربي بدفوعات سياسية جزائرية أفشل طموعات شعوب المغرب الكبير. فمن جهة حكمت الجزائر منطقة التسيس، فـرأت في تسريع التعاون المغاربي تفريط سياسي في ربيبتها الانفصالية «البوليساريو». وفي المقابل تعتبر تعضيد للمقدرة الإقتصادية المغربية التي تمتلك رصيدا بشريا مؤهلا يجعلها المستفيد الأول من الاتحاد، سيما

حوار العدد : مكنت عودة المغرب إلى الاتحاد الإفريقي تقوية نفوذه الإقتصادي واختراق عدد من القلاع

الهوامش

1 - تكونت من موسى تراوري رئيس مالي وسيكوتوري رئيس غينيا والجنرال أبسنجو رئيس نيجيريا وهوفويت بوانيي رئيس ساحل العاج ونيريري رئيس تنزانيا.

2 -Edmond Jouve, L'O.U.A, presses universitaires de France, Paris, 1984, p : 145.

3- Le Monde, du 22/23/7/1979.

4 - وتنص على أنه «لكل دولة عضو إفريقية مستقلة ذات سيادة الحق في أن تصبح عضوا في المنظمة».

Rihanat_No44 modif 1.indd 48-49 11/02/2018 23:57:31

أن الجزائر دولة ريع بترولية.

كما أن قناعة المغرب بعمقه الافريقي أصيلة، فقد ظل مكرسا سياسته لكل ما يفيد إفريقيا عبر شركات أثبت الوقائع أنها كانت على قدر كبير من النجاح. لأنها ظلت تستوعب التحولات المستقبلية، والحاجة إلى التهيؤ لها، انطلاقا من رؤية وتخطيط استـشرافي. ولذلك حرصت المملكة المغربية على تمتين العلاقات الاقتصادية والتنموية مع البلدان الإفريقية وتكريس نجاح الاستثمارات المغربية. ولأن نجاح الاقتصاد رهين بأخلاق السياسية، فقد سعت استراتيجية المغرب تحييد التعاون الاقتصادي عن ملف قضية الصحراء، وهو ما زاد من مصداقية التعاون مع المغرب.

وحيث إن المغرب ضبط رهاناته استشرافيا، فـإن دولا استغلت الغياب السياسي للمغرب داخل الاتحاد الإفريقي لاستصدار الكثير من القرارات المسيسة بالاتحاد ضد المغرب. إلا أن ذلك زاد في إيمان المملكة بأن واقع التحديث كفيل بأن يفرض نفسه على بؤس التسيس، الذي رهن تنمية إفريقيا لسنوات عديدة.

وحافظ الاقتصاد المغربي على حياديته في إفريقيا حتى في أحلك فترات الضغط، التي تعرض لها الموقف التفاوضي المغربي حـول الصحراء بسب انحياز الأمين العام للأمم المتحدة السابق بان كيمون ومبعوثه الشخصي إلى الصحراء كريستوفر روس للطرح الجزائري .[5]

وكـان طبيعي، حينها أن يتوقف الـدارسـون عند تقييم العلاقة بين العائد الاقتصادي والسياسي للمغرب في إفريقيا. وعلى أي أسـاس تتحدد العلاقات الدبلوماسية المغربية مع شركائه الأفارقة. سيما أن هناك بونا شاسعا بين نجاحات الاقتصاد المغربي في إفريقيا وإخفاقات أدائه الدبلوماسي. وهو أمر طرح تساؤلات حول الاقتصاد المواطن والدعوة إلى ما نطلق عليه «سيامية» الاقتصادي بالدبلوماسي في الفضاء الإفريقي للدفاع عن قضية الصحراء .[6]

مجموعة من الدول استغلت الغياب السياسي للمغرب داخل الاتحاد الإفريقي لاستصدار الكثير من القرارات المسيسة بالاتحاد ضد المغرب، إلا أن ذلك زاد في إيمان المملكة بأن واقع التحديث كفيل بأن يفرض نفسه على بؤس التسيس.

ولأن منطق السياسية الخارجية المغربية بات مرتبطا حتميا بإفريقيا، فقد ظل المغرب على الـدوام يعي بأن الخصومة السياسية مع منظمة الوحدة الإفريقية لا تعدو أن تكون خصومة مع ثلاثة دول تنازعانه الرغبة في الزعامة. ولذلك فإن سقف التعاون مع أوربا لم يخلو من تفكير في مستقبل إفريقيا، كأن يجسد المغرب الجسر المثالي الذي يربط القارتين الأوربية والأفريقية.

وإنـه، بـعـودة المغرب سياسيا إلى حضنه الإفريقي، تكون القارة الإفريقية قد أغنت إمكانيات تنميتها ببديل أكثر واقعية وجدية، وأكيد بأن ذلك سيحرك كثيرا من المياه الآسنة في إفريقيا، بعد التدافع في الكثير من المحطات الاقتصادية والسياسية. سيما وأن العودة إلى الواجهة الإفريقية سياسيا هي مواجهة ميدانية اجبر عليها لإعادة ضبط علاقاته الاقليمية عـلى أسـس سليمة وجد موضوعية.

مجلة رهانات : بدراسة للواقع الإفريقي سياسيا واقتصاديا يلفيه متسما بالضعف، أليست هناك مغامرة في الاستثمار في هذه البلدان، خصوصا بالنظر إلى حجم مديونية المغرب؟

أعتقد بأن التطور الذي شهده نظام الحكم في عدة دول إفريقيا، وتجاوزت حكم الحزب الواحد الشمولي، قد مكن من إستعادة الثقة في العديد من الدول الإفريقية التي انخرطت في إصلاحات سياسية واقتصادية، فأوجدت نسقا معقولا لاستغلال خيرات القارة الإفريقية، وذلـك بإعادة التفاوض مع الشركات الدولية التي ظلت تستغل المـوارد الطبيعية لإفريقيا.

وهو ما يجعل المغرب مؤمن بالفرص الواعدة التي يوفرها الإقتصادي الإفريقي الفتي للاستثمارات المغربية. وكذا لأن المغرب كان تجديره للتعاون الإقتصادي مستهدفا للدول الإقتصادية التي تتوفر على مؤشرات قوية عن وجود مناخ استثماري ملائم، يوفر انتعاشة للاقتصاد المغربي لأنـه سيخوض مغامرة التنافس الحقيقي في فضاءات جديدة.

ولأن الاستثمارات الأولى حققت نجاحات مهمة في الاتصالات والنقل الجوي وفي المجال البنكي، وهو ما سيسهم بالضرورة في تجاوز تداعيات ارتفاع المديونية. ومـن جهة أخـرى، فلأن لا مندوحة للمغرب من تحمل عبئ المساهمة في تطوير اقتصاديات الـدول الإفريقية، في إطار مسؤولياته الجيواستراتيجية.

وفضلا عن اقتناع المغرب بتعميق نفوذه في عمقه الإفريقي بالتزامن مع الأدوار التنموية في العديد من دول غرب افريقيا. وتبعا لذلك كان قرار العودة السياسية إلى الاتحاد الإفريقي مدعاة للشق الاقتصادي، من خلال استراتيجية مدروسة أساسها الشراكة الندية والتعاون التكاملي والتضامني فيما بين الدول الإفريقية.

ولأن حـوافـز الـعـودة تتجاوزت التحديات الداخلية إلى لعب أدوار استراتيجية دولية في إفريقيا، ترتبط أسـاس بعضوية المغرب المحورية في الاستراتيجية العالمية لمحاربة الإرهاب. ولا يمكن للمغرب القيام بهذه الأدوار الجيوسياسية بدون مواءمة بين الحضور الاقتصادي والحضور السياسي في إفريقيا. وفقا لهذه الرهانات توجه المغرب نحو

المغرب مؤمن بالفرص الواعدة التي يوفرها الإقتصادي الإفريقي الفتي للاستثمارات المغربية، والمغرب كان تجديره للتعاون الإقتصادي مستهدفا للدول الإقتصادية التي تتوفر على مؤشرات قوية عن وجود مناخ استثماري ملائم

افريقيا بامتداد مخطط وطني[7] في الأقاليم الجنوبية يروم إحداث مشاريع جد مهيكلة.

وبذلك، فإن تعزيز المغرب لمساهمته الإقتصادية في افريقيا بعد عودته سياسيا إلى الاتحاد الإفريقي، يبقى متحكما فيها عبر استراتيجية تعاون جنوب – جنوب، بديلا واقعيا وأكثر براغماتية من طوباويات العرض السياسي الجزائري. حيث لا تنفك السياسة الخارجية الجزائرية تغمس مشكلات افريقيا في خيال الاشتراكية الطوباوية. وحاولت جاهدة فرض أهداف موغلة في التجريد على الاتحاد الافريقي. «وهكذا يكون التحرر الكامل لإفريقيا جزء من كفاح الشعب الجزائري، في سبيل استقلاله وكرامته. ويعني هذا بالنسبة إلينا التزاما ايجابيا إلى جانب الشعوب الإفريقية المكافحة ضـد الاسـتـعـمار والتمييز العنصري» .[8]

مجلة رهانات: ألم يكن من الأفيد للمغرب أن يوقع اتفاقية تبادل حر أو شراكة متقدمة مع ا. د. غ. إ بدل الانضمام الكامل؟

إن الإنـضـمام يـوفـر ضـمانـات أكـبر وتنافسية أفضل من شراكـة أو تبادل حر، وحيث إن المغرب يعتبر رائد في اقتصاديات دول غرب إفريقيا، فإنه معني أكثر من غيره بالحصول على عضوية كاملة لتحقيق فرص متساوية لمواكبة تطوير بنيتها الاستثمارية داخل هذه الدول. ذلـك أن عـددا كبيرا من الاتفاقيات التي أشرف جلالة الملك على توقيع مع العديد من دول غرب إفريقيا وحتى تحقق كامل أهدافها، تحتاج إلى معاملة متساوية داخل البنية الاقتصادية لهذه الدول.

ولعل، ربط مجموعة سيداو انضمام المغرب إليها بنتائج دراسـة جدوى

حوار العدد : مكنت عودة المغرب إلى الاتحاد الإفريقي تقوية نفوذه الإقتصادي وافتراق عدد من القلاع

الهوامش

5 - اصدر الأمين العام السابق للأمم المتحدة بان كيمون تصريحا اعتبر فيه المملكة المغربية بلدا محتلا للصحراء، وذلك عقب زيارة جولة قادته إلى الجزائر ومخيمات تندوف سنة 2016.

6 - مداخلة عبد الفتاح الفاتحي حول «تطور قرارات مجلس الأمن حول الصحراء وآفاق الدبلوماسية المغربية» في ندوة «ملف الصحراء وسط المتغيرات الجيواستراتيجية.. تشخيص وسيناريوهات»،نظمها بالرباط المركز المغربي للدراسات الأمنية وتحليل السياسات، بشراكة مع المركز المغربي للدبلوماسية الموازية وحوار الحضارات بتاريخ في 24 أبريل 2014.

Rihanat_No44 modif 1.indd 50-51 11/02/2018 23:57:31

هذا الانضمام من الناحية الإقتصادية، يفسر بشكل واضح لماذا حرص المغرب على طلب العضوية، ذلك لأنها تمنح استثماراته تنافسية متزنة داخل هذا الفضاء. ومعلوم أن تسريبات كشفت عنها وسائل إعلام أجنبية أكدت بأن دولا تتحفظ على عضوية المغرب بداعي أن مؤسساتها ومقاولاتها قد تنهار لعدم قدرتها على مجاراة تنافسية المؤسسات الاستثمارية المغربية. ولذلك طالبوا بمزيد من الوقت بغاية تعميق نتائج الجدوى الاقتصادية لعضوية المغرب.

مجلة رهانات: هل يمكن النظر إلى فرنسا كشريك أو كمنافس للامتداد الاقتصادي المغربي في غرب إفريقيا؟

من الصعوبة بمكان تصور الشريك الأول للمملكة من الناحية التجارية والتاريخية وكذا السياسية، ولاسيما التنسيق حول قضية الصحراء على مستوى مجلس الأمن الدولي منافسا، ولذلك فبالنظر لمستوى التنسيق الأمني والسياسي حتى على مستوى افريقيا يستلزم أن تكون فرنسا شريكا موضوعيا في فضاء مشوب بكثيرا من الشوائب الأمنية والسياسية.

كما أن المنطق الاستراتيجي يقتضي التوجه مع فرنسا نحو إفريقيا في إطار شركات استثمارية لضمان أمن وحماية مرتفعة لهذه الاستثمارات، بواقع أن فرنسا تحتفظ بقواعد عسكرية في عدد من الدول الإفريقية بغاية تأمين استثماراتها ومصالحها في ظل توترات ونزاعات كثيرا ما تعيد إلى الواجهة مسألة الاستقرار الأمني والسياسي في إفريقيا.

ومن جهة أخرى، فإن استراتيجية المغرب تعاون جنوب ـ جنوب ولأن من بين رهاناتها أن يكون المغرب جسرا اقتصاديا وحضاريا بين افريقيا وأوربا يفرض عليه إيجاد شركات أوربية لضمان نجاح استراتيجيته، ولذلك من المستبعد تصور فرنسا منافسا يجب تجاوزها، ولكن يجب أن نبني معه نديا مصالحا اقتصادية وسياسية في فضاء لا يزال غامضا، مما يجعل المجازفة بالاستثمار فيه غاية في الصعوبة.

يتحمل المغرب جزءا مكلفا من الهجرة غير الشرعية، وهو ما يعقد المشكل الأمنية في ظل تحديات الإرهاب وارتفاع كلفة المراقبة لاستيباق نوايا الخلايا الارهابية.

3 - المحور الاجتماعي والثقافي:

مجلة رهانات: كيف يمكن للمغرب أن يتعامل مستقبلا مع موجات الهجرة، لا سيما وأن ا. د. غ. إ يسير نحو إقرار حرية تنقل الأشخاص ورؤوس الأموال، وربما نحو الهوية الموحدة؟

بداية لا من التأكيد على أن الهجرة واقع بات يفرض نفسه على المغرب، إذ تحول من بلد للعبور إلى بلد للإقامة، ويتحمل المغرب جزءا مكلفا من الهجرة غير الشرعية، وهو ما يعقد المشكل الأمنية في ظل تحديات الإرهاب وارتفاع كلفة المراقبة لاستيباق نوايا الخلايا الارهابية.

أما الحديث عن ضبط الهجرة المنظمة، فيبدو أن أقل ضرارا على المستوى الأمني، إلا أن السؤوال يبقى وجيها عن تداعيات الهجرة على التركبة الاجتماعية للمغرب، وهو ما يدفع إلى التنبيه على أن المملكة معنية برسم استراتيجية تدبير تداعيات الهجرة وتداعيات التفاعل مع إفريقيا مع تأمين هوية المجتمع المغربي. وتبعا لذلك فإن طلب عضوية المغرب استدعتها دواعي اقتصادية وسياسية وأمنية، إلا أنه وبعد الحصول على العضوية سيتم الدفاع على مصالح المغارب في ظل التعاطي مع القرارات المستقبلية لمنظمة سيداو.

الهوامش

7 - إطلاق المغرب النموذج التنموي الجديد بالأقاليم الجنوبية، وفي إطاره أعلن الملك في ذكرى 40 و41 للمسيرة الخضراء عن مجموعة من المشاريع الكبرى بجهات الصحراء.

8 - الميثاق الوطني لجبهة التحرير الوطني. الجزائر، مصلحة الطباعة للمعهد التربوي الوطني، 1976.

ومهما يكن، فإن التجمع ذا صبغة اقتصادية، ولذلك فلا أعتقد أنه سيراهن على الوحدة الهوياتية، ولكن يجب قبول تداعيات التفاعل الحضاري، شرط أن يكون هذا التعاون مفيدا لكل الأنساق الحضارية والثقافية إذ الجوهر الأكثر نجاح هو ضبط التوازن في تدبير التدافع الحضاري بما يجعل الفائدة أكثر استدامة تنوعا ونوعا.

مجلة رهانات: ينص الدستور المغربي لسنة 2011 على ضرورة العمل على بناء الاتحاد المغاربي كخيار استراتيجي. هل سيبقي هذا الانضمام ل: ا. د. غ. إ الباب مفتوحا على البناء المغاربي؟

أعتقد أن الإتحاد المغاربي يبقى خيارا استراتيجيا، ومطلبا شعبيا قبل أن يصير مطلبا دوليا، إذ كثيرا ما نسمع أصوات أوربية وأمريكية ومن منظمات دولية مانحة تطالب بضرورة التسريع إحياء الاتحاد. الأمر الذي يجعل منه ضرورة حتمية في انتظار أن تستوعب الجزائر ذلك بعيدا عن منطق الصراع الإقليمي.

ولذلك فإن إحياء الاتحاد المغاربي سيصبح في اعتقادي أولوية جبرية، بعدما يحسم المغرب معركة نزاع الصحراء على مستوى الاتحاد الإفريقي، ومحاصرة الجزائر وجبهة البوليساريو، التي ظلت تستفيذ من المقعد الفارغ للمملكة. حيث ظلت تمرر عبره الكثير من القرارات، مكنتها من ضمان توازن موقفها التفاوضي اقليميا ودوليا.

فالجزائر، ولأنها تستوعب عدم جاهزيتها للدخول في الاتحاد المغاربي، فلأنها ريعية ولأنها مؤمنة بأن فتح الحدود أمام الأفراد ورؤوس الأموال وغيرها لن يكون في صالحها، سياسيا واجتماعيا قبل أن يكون اقتصاديا، ولذلك فهي كثيرا ما تختار الهروب إلى الأمام بدواعي غير دقيقة.

ولذلك، فإن المغرب كثيرا ما شكل إحراجا لها، في هذا المجال بدعوته إلى تفعيل الحوارات الثنائية للتطبيع، إلا أن الجزائر عاودت تهربها فرفضت سياسة اليد المدودة التي أعلن عنها الملك محمد السادس بشروط غير موضوعية وتعجيزية كالمطالب بمنع تسرب المخدرات إليها والتحكم في الإعلام حين يتناول الجزائر والتزام المغرب بمبدأ تقرير المصير في الصحراء. وهي شروط لتبرير الرفض وليس للتفاوض حول كيفيات التطبيع من جارين.

مجلة رهانات : هل تتوقعون أن يخضع انضمام المغرب ل: ا. د. غ. إ، في حال المصادقة عليه، لاستفتاء شعبي؟

فإذا كانت عودة المغرب إلى الإتحاد الإفريقي، وعلى الرغم من أهميته، لم تتعد تصديق البرلمان ومجلس المستشارين على الانضمام إلى المنظمة الإفريقية الأم، فلا أعتقد أن المغرب الذي كان ينتظر الإعلان عن عضويته في الدورة 52 العادية لقمة قادة الدول الأعضاء في المجموعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا (إكواس) المنعقدة بالعاصمة النيجرية أبوجا في دجنبر 2017 سيعرض مسألة الانضمام إلى هذه المنظمة أم لا على أنظار الشعب المغربي، كما الحال في أعرق الديموقراطيات.

وعليه، وحيث أن التقدم بطلب العضوية كان محكوما بمبدأ المجال المحفوظ للملك في السياسية الخارجية، وحيث إن هذا المبدأ اعتمد في انضمام المغرب إلى الاتحاد الإفريقي، فإن ذات المنطق احترم حين وضع طلب الانضمام إلى مجموعة إكواس. ويستعاض عن الاستفتاء العام بتصديق المؤسسات التمثيلية البرلمان ومجلس المستشارين.■

Rihanat_No44 modif 1.indd 52-53 11/02/2018 23:57:32

تدبير الاختلاف والتعدد الثقافي

رشيد مشرف

تمهيد

عند تحليلنا للصراعات القائمة اليوم سواء داخل الدولة، أي بين مكوناتها، أو خارجها، بين دولـة وأخـرى، نلفي دائما أن للمكون الثقافي حضورا كبيرا في إشعال فتيلها أو عقبة أساسية ضمن العقبات الأخرى التي يجب تسويتها لإخـمادهـا؛وهـذا ما يوضح الاهتمام المتزايد بالمكون الثقافي عند وضع التصور السياسي للدولة المعاصرة. لكن الاهتمام بالثقافة يجعلنا أمام معضلة الاختلاف والتعدد، ذلـك أن ما يطبع البعد الثقافي لكل مجتمع هو طابع الاختلاف والتعدد، حيث أدت حركة الإنسان في الأرض عبر التاريخ، لأسباب عديدة، إلى نشوء مجتمعات هجينة وغير منسجمة سواء في إثنياتها أو أعراقها أو دياناتها أو لغاتها. يفرض واقع الاختلاف، بشكل صريح أو غير صريح، معطى التدافع والتنافس والصراع بين المختلفين حول المصالح والطموحات الذاتية، فيكون ذلـك سببا، من بين أسباب أخـرى، في ظهور الهينة -هيمنة القوي على الضعيف والأغلبية على الأقلية- وتهديد الحياة المشتركة، وبالتالي الحديث عن الانفصال والانـفـلاق. يفرض تحاشي هذا المآل -مآل الهيمنة والانفصال-، من جهة، وعدم إمكانية التخلص من الاختلاف ومحوه، ما دام أنه معطى إنساني طبيعي مميز للوجود البشري على إطلاقه، من جهة أخرى، ضرورة التفكير في التدبير العقلاني للاختلاف؛ فكيف، إذن، السبيل إلى ذلك؟

يقوم التدبير العقلاني للاختلاف، في نظرنا، على إتباع ثلاثة سبل رئيسية: نهج سبيل الاختلاف، وسبيل الحوار والتواصل، وسبيل الاعتراف.

1- الاختلاف

ينطلق السبيل الموصل إلى التدبير الحصيف للاختلاف والتعدد الثقافي من جعل الاختلاف خلفية للتفكير في شؤون الذات، وعلى رأسها الهوية، والدولة، وعلى رأسها الثقافة، وذلك لعدة أسباب نذكر بعضها فيما يلي:

يسعف الاختلاف على النفوذ إلى فهم هوية الذات وبناءها النفسي الاجتماعي، وفهم طبيعة الثقافة وبنياتها و سيرورة تطورها؛ ذلك أن هوية الذات أساسها التفاعل مع الآخـر،[1] والثقافة أساسها التثاقف؛[2] وعليه فإن بناء الفرد-المواطن وتشكيل ثقافة المجتمع-الوطن يجب ألا يخرجا عن هذه القاعدة الأساسية في البناء، بحيث لا يكون البحث عن نفي الاختلاف وتحصيل التجانس هو المطلب لأن ذلك سيكون عاملا معيقا للبناء السليم للذات والهوية والثقافة، فكل من الذات والثقافة لا تستطيعان التطور والارتـقـاء إذا منعتا التواصل الدائم مع المختلف الذي يحيلهما على السلب ويدفعهما إلى التجاوز عبر كشف النقائص، والنقد الـذاتي، وإعـمال آلية الهدم وإعادة البناء؛الأمر الذي يجعل قبول الاختلاف ضرورة وجودية لا مناص منها ولا سبيل إلى إنكارها.

يمكننا الإقـرار بالاختلاف من الحد من الهيمنة بمختلف تلاوينها السياسية والاقتصادية والثقافية، وكشف آلياتها وخيطوها، ويقلل من التمركز حول الذات.غالبا ما ينزلق التدبير القائم على افتراض انسجام المجتمع نحو غبن حقوق الأقليات -السياسية والثقافية والاقتصادية- واستفادة الأغلبية، وغالبا ما ينزلق الإدمـاج القائم على افتراض القومية الـواحـدة نحو فـرض واقـع استلابي على ثقافات الأقليات، واستيعاب الأقليات، وهيمنة ثقافة القومية الغالبة وتمركزها الـذاتي. وقد تساعد الآليات الديمقراطية القائمة على مبدأ الأغلبية على تكريس ذلك وشرعنته، ما دام أن زمام الأمور دائما ما تؤول إلى أصحاب الأغلبية التي تعيّنها صناديق الاقتراع. لكننا لما نضع الاختلاف نصب أعيننا، فإننا نجعل في تدبيرنا لسياسة المجتمع و ثقافته واقتصاده مكانا معتبرا لكل أطيافه ومكوناته، بحيث نراعي حقوق الجميع التي تتماشى و خصوصيات كل الفئات والجماعات المكونة للمجتمع، ونعترف بحقها في الحفاظ على وجودها و استمراريتها؛ بمعنى أن معطى الاختلاف يجعلنا ننظر إلى طبيعة المجتمع بمنظار خاص يلتقط وضعية كل الفئات بالقدر نفسه من الوضوح، وبذلك يدفعنا هذا الاختلاف إلى تعديل بعض مفاهيمنا حول المساواة والعدالة وآليات العمل الديمقراطي بكيفية نحاول بها تجنب الهيمنة. - بالنسبة إلى المساواة، يجب إعادة النظر في الكيفية التي ننظر بها إليها، حيث تمسي المساواة هدفا نصل إليه بعد الاعتراف بالاختلاف والتفاوت الذي يجب أن نتعامل معه بصيغ توصلنا في نهاية المطاف إلى خلق وضعيات متساوية ومتكافئة ينطلق منها الأفراد للإنتاج و الإبداع بطرق مختلفة تجعلهم يتفاوتون في قيمة ما ينتجون وما يبدعون تبعا لطاقاتهم واجتهاداتهم.

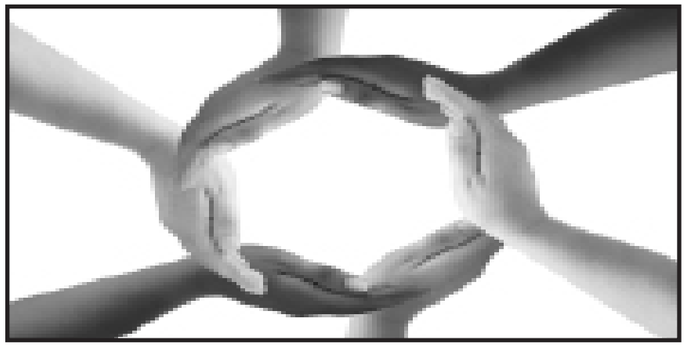

- بالنسبة إلى الـعـدالـة، مـن بين التحديات التي تطرح على العدالة في صلة بالوضعيات الاجتماعية المتميزة بـالاخـتـلاف والـتـعـدد، هـو أن، من جهة،مطالب الأقليات والفئات التي تعاني بسبب خصوصياتها مطالبها عادلة ومشروعة، ويتضح ذلك من خلال الآثار السلبية التي تلحق بها عندما لا يُعترَف بها ولا تحمى ثقافتها التي تصبح مهددة بـالـزوال. يـرى ويـل كيمليكا، في هذا الصدد، أن منح حقوق الأقليات الثقافية يكون بهدف حمايتها من أن تجرف من طرف الثقافات الكبرى؛ولا تعني هذه الحماية عزلها أو الحفاظ على صفائها الثقافي، بل تعني إعطاءها الحق في أن تُحدِّد متى وكيف تتفاعل مع الثقافات الأخرى، وتمكينها من أدوات التحكم في الاتجاه الذي يمكن أن يسير فيه الاغتناء والتعلم من الثقافات الأخرى، وما يترتب على ذلك من تغييرات قد تلحقها؛كما تعني وضع قواعد مُؤَسَّسة على الإنصاف لهذا التفاعل الحاصل بين الثقافات، خاصة بين الثقافات الصغرى والثقافات الكبرى. إنه لمن المؤكد أن التفاعل بين الثقافات هو شيء حتمي في الواقع، وقد يسهم في تطوير الثقافات وإثرائها، لكن ما يجب التنبيه إليه هو أن ذلك يجب أن يكون انطلاقا من قـرارات ورغبات أفرادها، وأن ينفتح هؤلاء الأفراد على الثقافات الأخرى بالشكل الذي يرغبون فيه، دون أن يُزجّ بهم في سياق علاقات القوة غير المتكافئة مع ثقافات أخرى، فتُفْرَض عليهم قرارات من خارج فئتهم[3].

الهوامش

1 -Dorais, Louis-Jacques, et Edmund (Ned) Searles, «Identités inuit/Inuitidentities», 2001, Études/Inuit/Studies, 25, 1-2, pp. 9-35.

2 -للتأكيد على البعد الدينامي للثقافة،استبدل دينيس كوش كلمة "تثقُّف" (Culturation) بكلمة "ثقافة"،*حتى تفيد معنى التكون المستمر الذي لا نستطيع في الغالب تحديد "نقطة الصفر"**فيه التي تسمح لنا بوصف ثقافة ما قبل الاتصال مع الثقافات الأخرى ونقارنها مع الحالة التي تصبح عليها بعد الاتصال.

*دينيس كوش، "مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية"، ترجمة منير السعيداني، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، مارس 2007، ص 112.

**Bronislaw Malinowski, «Les dynamiquesde l'évolution culturelle, Recherche sur les relations raciales en afrique»,traduit de l'anglais par Georgette Rintzler, ouvrage publié par Phyllis M. Kaberry, 1941, pp. 40-47

Rihanat_No44 modif 1.indd 54-55 11/02/2018 23:57:32

ثم من جهة ثانية، يجب أن تستند العدالة إلى خاصية تعدد المعايير، نظرا لتعقد المجتمعات الحديثة، وما يفرضه علينا واقع تعدد الفئات من مراعاة تعدد إطارات العدالة التي يجب أن نراعي حدودها عندما نريد مناقشة معاييرها التي ستختلف قطعا عندما سننتقل من إطار إلى آخر، وذلك حتى نتجنب الظلم الـذي يمكن أن نسببه باسم العدالة عندما نتجاهل تلك الإطـارات. هذا ما تعنيه نانسي فرايزر بدعوتها لنا إلى أننا قبل أن نفكر في إشكالات العدالة يجب أن نفكر أولا في ميتا-المشاكل المتعلقة بها.[4]على رأس تلك الإطارات نذكر الإطار العام والإطار الخاص، فالعام هو الذي تتحدد فيه العلاقات بين الفئات المكونة للمجتمع، أما الخاص فهو الذي تتحدد فيه علاقة كل فئة بأفرادها المكونين لها؛ والإطار الذي يتجاوز الدولة « الوستفالية »، وينفتح على الإقليمي و الجهوي و الكوني. باختصار،غدت العدالة مسألة تتطلب منا اعتماد مبادئ متنوعة لتتلاءم وطبيعة المجتمع، مع التوسل بآليات الحوار للتفاوض حولها.

- بالنسبة إلى آلـيـات العمل الديمقراطي، يجب البحث عن طريقة نتجاوز بها المبدأ الديمقراطي المتمثل في الاحتكام إلى الأغلبية، لأن العائق الذي يكون أمامنا هو كيفية الحيلولة دون هيمنة الأغلبية على الأقلية التي يمكن أن ترسخها الانتخابات المؤسساتية؟ وقد يكون اعتماد، مثلا، الديمقراطية التمثيلية إحدى صور ذلك التجاوز.

يعيننا الاختلاف على توخي الشمولية عند مقاربة التعدد الثقافي، حيث لا يختزل هذا الأخير في دراسة العلاقة بين القوميات و الإثنيات فقط، ولكنه يشمل حتى الفئات والجماعات التي تستدعي مراعاة خصوصيتها نظرا لوضعها الخاص في المجتمع الـذي يجعلها مختلفة عن الآخرين (العجزة، النساء، ذوو الاحتياجات الخاصة...). نجد مثل ذلك الاختزال عند ويل كيمليكا الذي حصر دراسته للتعدد الثقافي في الفئات القومية والفئات الإثنية؛ فالدولة متعددة الثقافات، التي اهتم بها، هي الدولة التي ينتمي أفرادها إلى قوميات مختلفة (دولة متعددة القوميات)، أو التي هاجر إليها أفرادها من بلدان مختلفة (دولة متعددة الإثنيات)، لدرجة يصبح معها هذا التعدد، سواء القومي أو الإثني، سمة مميزة للهوية الشخصية وللحياة السياسية في ذاك البلد[5]. كان من أثر ذلك الاختزال أن تحديده للتعدد الثقافي لم يسعفه على أن تكون مقاربته شمولية بما يكفي؛ ذلكما اتضح من المعالم الأساسية لنظريته التي ركز فيها على البحث عن صيغ النظام السياسي الديمقراطي التي يمكن أن تضمن حقوق الفئات القومية والفئات الإثنية، دون أن يوضح الآليات التي تخولنا احترام خصوصيات الفئات الأخرى وضمان حقوقها؛ ثمّ إن اختزاله التعدد الثقافي ليشمل الاعتراف بالقوميات والإثنيات فقط، جعله يغفل الإشكالات الأخرى التي لها علاقة بالهوية وتكوين الذات؛ فصحيح أنه حصر التعدد الثقافي في هذين المكونين ليساعده ذلك على تحقيق غايته المتمثلة في وضع الآليات الديمقراطية والسياسية التي تمكن الدولة من تدبير تعددها الثقافي، لكن ذلك لا يجب أن يكون على حساب جوانب أخرى أساسية كرفع الحيف عن فئات لها مكانتها في المجتمع، خصوصا وأنه حيف له انعكاس على الإحساس بالكرامة.

الهوامش

3 - Will Kymlicka, «La citoyenneté multiculturelle, une théorie libérale du droit des minorités»,traduit de l'anglais par Patrick Savidan, Editions de la Découverte, Paris, 2001, pp. 152-154.

4- Nancy Fraser,«Abnormal Justice» in Justice, Governance, Cosmopolitanism, and the Politics of Difference - Reconfigurations in a Transnational World,Kwame Anthony Appiah, Seyla Benhabib, Iris Marion Young, Nancy Fraser, Distinguished W.E.B. Du Bois Lectures 2004/2005, pp. 117-142.

5 -Will Kymlicka, «La citoyenneté multiculturelle, une théorie libérale du droit des minorités», op. cit., p. 34.

إن إيجابيات الاختلاف هذه لا تمحو مع ذلك ما يفرضه من تحفيز حضور منطق الصراع والتنافس وتقوية التمركز حول الذات؛ذلك أنه لما كانت العلاقات الاجتماعية، في غالبها، تتسم بحضور منطق الـصراع،[6] كـان حضور عنصر الاختلاف عاملا معززا لذلك المنطق ومقويا له. أمام هذا الوضع سيصبح من اللازم أن نهذب ذاك الصراع ونجعله في إطار مقبول اجتماعيا ومسيطر عليه أخلاقيا. يدفعنا هذا إلى الحديث عن السبيل الثاني لتدبير الاختلاف، وهو سبيل الحوار والتواصل.

2 - الحوار والتواصل

السبيل الـثـاني لتدبير الاختلاف والتعدد الثقافي هـو سبيل الحوار والتواصل، وهنا ننفتح على المقاربة التواصلية ليورغن هابرماس التي تقوم على نقل الخلاف والصراع إلى دوائر اللغة وإلى حلقات النقاش والحوار. الإيجابي في هذه المقاربة هو أننا نصبح ضمن إطار يرفض الحقائق التي تبنيها الذات بشكل انفرادي، وإنما تبنى الحقائق بشكل « **تذاوتي**» عبر الاتفاق حول مشروعيتها والتوسل بالمحاججة المستندة إلى أقوى حجة، خاصة عندما نكون بصدد التنازع حول المصالح العملية التواصلية، وإقامة تمييز بين مجالات الحقائق التي تختلف آليات إثباتها من مجال إلى آخر، حتى نتفادى تحول العلم إلى إيديولوجيا كما سعت إلى ذلك النزعة الوضعية[7]. سيفرض انزياح الحقيقة من انفراد الذات بها إلى إنتاجها عبر «التذاوت» الالتفات إلى الآخر الذي يتقاسم معنا عالمنا المعيش للاعتراف به والإنصات إليه قصد التفكير بشكل تواصلي، في الفضاء المشترك، عبر العقل التواصلي في القضايا المشتركة.

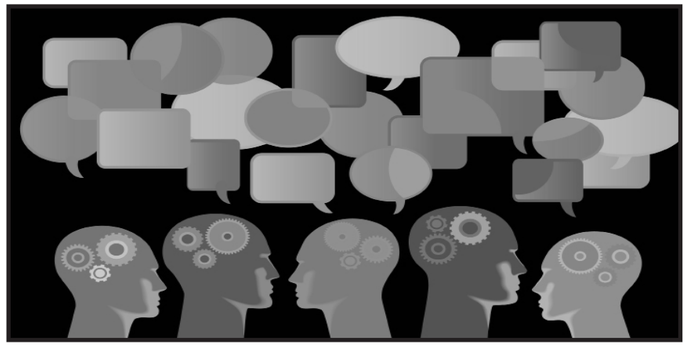

يفيدنا الحوار في بناء الثقافة المشتركة التي تشكل أفقا مشتركا من القيم والمبادئ الموجِّهة نحو الإحساس بالانتماء إلى الوطن، وتأسيس مجتمع مدني متنور، وبناء الرأي العام والإرادة السياسية، التي تعد أمورا أساسية في التدبير القائم على التواصل والتشارك للدولة الحديثة. يتعزز سبيل الحوار والتواصل هذا إذا استعنا بثقافة التأويل التي يجب تعميمها بين العموم حتى تخلق في الأفراد الاستعداد إلى الحوار والتواصل، لأن ما تمنحنا إيـاه ثقافة التأويل هو إمكانية فهم العالم وحقائقه بصيغ متعددة حيث لا تنفرد أي صيغة منها بالحقيقة النهائية والقطعية. و لكي يحصل المراد من ثقافة التأويل يمكننا أن نضع للتأويل بعض الشروط، نذكر منها:

أ- الاعـتراف بالقيمة المتساوية لمختلف الـثـقـافـات؛ ويتبلور هذا الاعـتراف في التعامل مع كل الثقافات على القدر نفسه من القيمة والاعتبار والتقدير.

ب- تجنب اعتماد معايير ثقافتنا الخاصة للحكم على الثقافات الأخرى، لأنه في عدم تجنبنا ذلك محاولة لحشرهم ضمن فئتنا، وتعبير عن عدم احترامنا لاختلافهم وتميزهم، وافتراض ضمني على وجود نظرة متعالية وتمركز إثني.

ت- المحافظة على الاختلاف، لأن التبادل الثقافي لا ينجح إلا عندما تُحفظ الاختلافات بين الـ:"نحن"والـ:"هم"، ولا تُشوَّه تصورات الثقافات الأخرى.

ث- إعـطـاء أهمية قصوى للغة نظرا لارتباطها بالوجود والعالم المعيش والحوارية والسلطة.

ج- الانفتاح النقدي على التراث والأحكام المسبقة؛ إذ يجب أن يحتفظ انفتاحنا على التراث والأحكام المسبقة -التي يعد الـتـراث مصدرها- بمسافة نقدية تجاههما.

ح- يقتضي التأويل تبني نظرة لينة حول العقل، تتمثل في عدم اختزاله في بعد واحد، كالبعد الأداتي التقاني (العقل الأداتي التقاني) مثلا، وإنما جعله مفتوحا ليسع أبعاده الأخرى كالبعد التواصلي (العقل التواصلي)، والبعد الجمالي (العقل الجمالي)،[8] وغيرها من الأبعاد؛ وذلك للرفع من قدرته على فهم إمكانات الوجود المتعددة.

Rihanat_No44 modif 1.indd 56-57 11/02/2018 23:57:33

3 - الاعتراف

السبيل الثالث هو اعتماد ما يسمى بسياسات الاعتراف، التي تقوم على مبدأ الاعتراف الذي تجعل منه مزاياه وآثاره الإيجابية على الفرد والجماعة حاجة سيكولوجية، وحتمية سوسيولوجية، وضرورة حضارية ليس لها أي بديل. نلفي هـذه المـزايـا في أعـمال الكثير من الفلاسفة الذين اهتموا بمقولة الاعـتراف، على رأسهم تشارلز تايلور وأكسيلهونيت.

كان اهتمام تشارلز تايلور بسياسات التعدد الثقافي نابعا من اعتباره الاعتراف عاملا أساسيا في تشكيل الهوية، إذ يرقى عدم الاعتراف بالذات وتجاهلها أو وصفها بصفات مشوِّهة لحقيقتها إلى مستوى المس بكرامة الذات واضطهادها.[9] إن الاعتراف القائم على المساواة عند تايلور ليس مجرد مجاملة تجاه الشعوب أو درب من اللياقة تجاه الآخرين، وإنما هو حاجة إنسانية حيوية تتطلب إلزامية تحقيقها، والقاعدة الملائمة للمجتمع الديمقراطي السليم.بيّن تشارلز تايلور على لسان فرانزفانون(Frantz Fanon) الطبيب والمحلل النفساني صاحب "المعذبون في الأرض"«Les Damnés de la Terre»،[10] أن أهم سلاح استعمله المستعمرون ضد شعوب مستعمراتهم وأقوى عنف مارسوه عليهم، هو فرضهم صورة المستعمر على الناس المستعبدين، وهي،في واقع الأمر، صورة محقِّرة لهم ومشوِّهة لحقيقتهم؛فكان على هؤلاء المستعبدين أن يتحرروا من عبوديتهم ويتخلصوا من العنف الـذي مورس عليهم بتنقية ذواتهم من تلك الصورة المحقرة لهم، وتطهيرها من تلك "الهوية الهدامة" التي فُرِضَت عليهم. وكشكل من أشكال تصحيح رؤية الذات ومقاومة اضطهادها، اهتم تايلور ببرامج التربية والتعليم، نظرا لـدورهـا الحاسم في تكوين الهوية وترسيخ الحرية والمساواة، ولـقـدرة الـبرامـج التعليمية المراعية للتعدد الثقافي على تصحيح صور الذات السلبية ومقاومة الهيمنة المتمثلة في غرس الصور الدونية عن الذات. شدد تايلور، في هذا الباب،على ضرورة تغيير المناهج التعليمية التقليدية لتستجيب إلى شرط الاعـتراف الذي يفرضه البناء السليم للهوية، وتفرضه أيضا القيمة المتساوية لكل الثقافات،[11] فكان أن دعا إلى التخلص، في أقسام العلوم الإنسانية بالجامعة، من البرامج المُعتمِدة بشكل كبير على تدريس الكُتَّاب "الذكور البيض الموتى"، لفسح مجال أكبر في هذه البرامج لتدريس أعمال نساء وكتاب من أعراق وثقافات غير أوروبية؛ وتطوير البرامج ذات المحتوى المتعلق بالشؤون الإفريقية الموجهة للتلاميذ في مـدارس السود الأساسية للتعليم الثانوي(حالة الولايات المتحدة الأمريكية). ولم يكن ذلك من باب الحرص على ألا يَلِتَ التلاميذ شيئا من المعرفة لَـمًّا تقصى مجموعة من الثقافات أو إسهامات بعض الأجناس أو الأعراق، أو الحرص على توفير ثقافة واسعة للجميع، وإنما من باب الحرص على ألا تُقدم للنساء والتلاميذ المنتمين إلى الفئات المقصية، بكيفية صريحة أو غير صريحة، مقصودة أو غير مقصودة، صورة محقرة عن ذواتهم، وألا يترسخ الاعتقاد بأن كل قيمة أو إبداع مرتبط، حصرا، بالذكور البيض الأوروبيين.[12]

أما أكسيلهونيت رأى بأن للاعتراف دورا بالغ الأهمية في بناء الإنسان وإعـداده للانخراط الإيجابي في الحياة العامة؛ إذ يستلزم، في نظره، نسجُ علاقة إيجابية مع الـذات عبر عيشَ تجربة الارتباط العاطفي، والاعتراف القانوني، و تمتيع الذات بالتقدير الاجتماعي. بناء على ذلك، ميز في الاعتراف ثلاثة أشكال، لكل واحد منها أثره الخاص على الإنسان: الاعتراف القائم على الحب، والاعتراف القائم على الحق، والاعتراف القائم على التضامن.

بالنسبة إلى الأول، نظر هونيت إلى الحب، خاصة الحب الأمومي باعتباره رمزا للاهتمام العاطفي، على أنه أول شكل من الاعـتراف يتلقاه الفرد في حياته، يمنحه الأساس النفسي والقاعدة الانفعالية التي ستتأسس عليها شخصيته ونظرته لذاته. فهو أول علاقة اعتراف متبادل تفتح الطريق إلى نسج علاقة إيجابية مع الذات، وتُكسب الثقة الأولية فيها؛ إذ تمنح التجربة التذاوتية للحب الفرد الأمن العاطفي الذي يُمكِّنه من الوثوق في مشاعره وفي الدوافع المتولدة عن حاجاته الأساسية، والتعبير عنها بشكل هادئ وإيجابي،فضلا عن تأمينها له الـشروط النفسية لتطوير المواقف الأخرى لاحترام الذات[13].

وعليه، يغدو الاعـتراف الانفعالي المؤسس على « الحب» ، المتمثل في التشجيع والاهتمام العاطفي والمساندة الانفعالية التي تتلقاها الـذات من أشخاص آخرين ملموسين يستجيبون لمشاعرها وحاجاتها عبر الحب،مساعدا للفرد على بناء الثقة بالنفس (Self-confidence) التي تشكل الطبقة الأساسية للتأمين الانفعالي الذي يسمح بالتعبير عن الحاجات والمشاعر الخاصة بكل فرد، ويشكل الافـتراض النفسيأو القاعدة الصلبة لتطور كل الأشكال الأخرى لاحترام الذات.[14]بهذه الصورة يشكل الحب، في نظر هونيت وكما رآه هيغل أيضا، النواة البنيوية لكل حياة أخلاقية، مادام أنه يقدم قاعدة الأمان العاطفي لبناء العلاقة السليمة مع الذات وتهييئها للتفاعل في الحياة الاجتماعية، ويمنح الفرد الثقة في النفس التي من دونها لن يستطيع المشاركة بطريقة مستقلة في الحياة العامة.[15]

بالنسبة إلى الاعـتراف الثاني القائم على الحق أو الاحترام القانوني المترجم في "الاعتراف القانوني"، هو احترام كوني يستند، بلغة كانط، إلى الإرادة الحرة للشخص، وإلى كون كل ذات إنسانية هي غاية في ذاتها؛ لهذا فإن الاعتراف القانوني بالفرد باعتباره شخصا، لا يعرف درجات أو مستويات أو تراتبية.[16] تتجلى أهمية الاعتراف القانوني(Legal recognition)، بالنسبة إلى الشخص، في كون الاعتراف الاجتماعي بالحقوق المتساوية هو بالأساس دليل على الاحترام الاجتماعي، والحقوق المشروعة التي يُعترَف بها للفرد هي إشارات تعبر عن أنه يستحق احترام كل الذوات الأخرى. يُترجَم أثر ذلك عمليا بتمكين الفرد من اتخاذ موقف إيجابي تجاه ذاته، حيث يتمثل ذاته كشخص يتشارك مع كل أعضاء الفئة خصائص الفاعل المسؤول أخلاقيا عن أفعاله. يأخذ هذا الارتباط الإيجابي مع الذات صورة « احترام الذات» (Self-respect)، الذي يشكل وسيلة رمزية أساسية تبين للفرد، بشكل دائم، بأنه شخص متمتع باعتراف عـام، وله القدرة على إنشاء أحكام مستقلة،والمشاركة في تشكيل إرادة خطابية (Discursive will-formation)، وفهم أفعاله كتمظهرٍ لاستقلاليته الخاصة، تماما كما هو الحال في حالة الحب حيث يتعلم الطفل، بفضل التجربة الدائمة للرعاية الأمومية، الثقة التي تمكنه من إظهار بشكل حر حاجاته ومشاعره. وهذا ما يجعل،أيضا، من اعتبار احترام الذات نواة الحديث عن المسؤولية الأخلاقية[17].

أمـا بالنسبة إلى الاعـتراف الثالث القائم على التضامن، فيتجسد في تمتيع الـذات بتقدير اجتماعي يمكنها من الثقة في مؤهلاتها الخاصة وقدراتها الملموسة،وهو تقدير على صلة وثيقة بالمؤهلات الخاصة التي يتصف بها الأفراد وتشكل تميزهم وتفردهم. يشير الاعتراف القائم على التضامن (Solidarity)، عند أكسيلهونيت، إلى اعتراف الأفراد بمؤهلات وخصوصيات بعضهم البعض وتقديرها بشكل متماثل، وذلـك على قاعدة أنه بقدر ما تراعي الذات فعليا تطور مؤهلات الآخر الخاصة التي ليست

الهوامش

6 - يمكن أن نستحضر هنا الوصف الذي قدمه ميشال فوكو للكيفية التي تتجسد بها السلطة في العلاقات الاجتماعية. (أنظر مقالمعزوز عبد العالي: "فوكوومیكروفیزياء السلطة"، مجلة حكمة الالكترونية،16 أبريل 2015.(/فوكو-وميكروفيزياء-السلطة -www.hekmah.org/2).

7 - تحصر الإبستمولوجيةالنقدية، التي سعى هابرماس إلى تأسيسها، مفهوم المصلحة، وتحدد مجالاتها، وأصناف العلوم المرتبطة بها، وما تتطلبه من إلزامات. فهو يميز بين ثلاثة أصناف:

- المصلحة التقانية أو الأداتية: مرتبطة بحقل العلوم التجريبية والتحليلية.
- المصلحة العملية:مجالها هو مجال التواصل بين البشر، والذي هو حقل العلومالتاريخية-التأويلية.
- المصلحة التحررية أو الانعتاقية: مرتبطة بحقل العلوم الاجتماعية النقدية، خاصة الماركسية، والتحليل النفسي، وفلسفة التأملالذاتي

8 - يعد يورغنهابرماس (J. Habermas) منظرا للعقل التواصلي، ورتشارد روتي (Richard Rorty) منظرا للعقل الجمالي.

9 -Charles Taylor, «The Politics of Recognition», inMulticulturalism:Examining The Politics of Recognition, Edited and Introduced by Amy Gutmann, Princeton UniversityPress, Princeton, New Jersey, 1994, p. 25.

10 -Frantz Fanon, «Les Damnés de la Terre», Paris: Maspero, 1961.//«The Wretched of the Earth»,Translatedfrom the French by Richard Philcox,withcommentary by Jean-Paul Sartre and Homi K. Bhabha, Grove Press, New York, 2004.

11 - دافع تايلور عن القيمة المتساوية لكل الثقافات، حيثإن كل الثقافات وما تنتجه من قيم متساويةٌ من حيث القيمة. وللدفاع عن ذلك يدفع بمجموعة من الحجج التي أوردها في: Charles Taylor, «The Politics of Recognition», op. cit., p. 72

Rihanat_No44 modif 1.indd 58-59 11/02/2018 23:57:33

مؤهلاتها هي، فإن غاياتهما المشتركة ستتحقق في إطار المهام والمسؤوليات المشتركة، وفي سياق اللحظات العاطفية للمشاركة التضامنية. وتحيل هذه الأخيرة على علاقة التفاعل التي تهتم فيها الذوات المفردنة والمستقلة بالمسار الشخصي لأقرانها، وعلى التسامح السلبي (Passive tolerance) والشعور بالتعاطف الفعلي مع الخصوصية الفردية للشخص الآخر.

يُترجَم كل ذلك بعلاقات التقدير المتماثل (Symmetricalesteem)، وبمنح مؤهلات وقدرات الآخر دورا دالا في الممارسة المشتركة، حيث يتم تثمين كل عضو من طرف الآخرين. وهذا ما يسمى بالتقدير التضامني المتماثل للقدرات المطورة من طرف الفرد ولطريقته في الحياة، إذ يتلقى الفرد التشجيع والاعتراف بخصوصياته الفردية كشخص مفردن عبر مسار حياته الخاصة. ولا يعني التماثل(Symmetry) هنا في عبارة « التضامن المتماثل»، عند أكسيلهونيت، أن الذوات يجب أن تقدّر بعضها البعض بالدرجة نفسها، وإنما يعني به أن كل ذات بمؤهلاتها وقدراتها ينبغي أن يُنظر إليها كعنصر متميز في المجتمع خارج أي تصنيف أو ترتيب فئوي، وذلك لأن الأفق الاجتماعي للقيم هو موضوع للتأويل يستحيل معه أن تكون هناك غاية محددة بصورة كمية تمكّن من مقارنة مضبوطة بين قيمة مختلف الإسهامات الفردية[18].

يسهم الاعتراف المرتبط بالتضامن بشكل كبير في إنشاء علاقة عملية مع الذات وتكوين موقف إيجابي تجاهها، وذلك من خلال تحقيقه ما يسمى بـ: « تقدير الذات» (Self-esteem). يؤمّن الاعتراف القائم على التضامن للفرد استقلاليته وتفردنه عبر « الغير المعمم» «Generalizedother» الذي يمنحه الموافقة التذاوتية على فردانيته الثابتة[19]؛ و يجعل هذا الفرد هو الذي يُقدِّر نفسه بنفسه، بدلا من أن ينتظر من المجتمع التقدير الذي تستحقه إنجازاته تبعا لجملة من المعايير الثقافية المحدد سلفا؛ كما يجعله يدرك، في الوقت ذاته، أن إنجازاته ومؤهلاته وأنشطته الخاصة لا تفتقد إلى «القيمة» في أعين باقي أعضاء المجتمع. يُكلَّل كل ذلك بإحساسه بقيمته الخاصة، وشعوره بالثقة في الإنجازات التي حققها أو القدرات التي يمتلكها؛ وهذا ما نسميه « تقدير الذات». بالإضافة إلى ذلك، إن العلاقة العملية الإيجابية مع الذات التي يكتسبها الفرد بواسطة تجربة الاعتراف هذه، لها تجل آخر يتمثل في الشعور بالفخر بالطائفة أو الشرف الجماعي؛ إذ يمتد التقدير الذي يطال الفرد بسبب إنجازاته أو مهاراته، أيضا، إلى الفئة التي ينتمي إليها، حيث تصبح الفئة في كليتها موضوع تقدير. بذلك تكون قيمة الفئة، التي تسعى في كليتها إلى تقديم إسهاماتها إلى مجموع الجسم الاجتماعي، معترفا بها من طرف باقي أعضاء المجتمع. وفي هذا نوعٌ من الاعتراف المتبادل بين الفرد والفئة وبين الفئة والفئات الأخرى.[20]

الهوامش

12 - Charles Taylor, «ThePolitics of Recognition», op. cit., p. 65-66.

13 - Axel Honneth, «The Struggle for Recognition: The Moral Grammar of Social Conflicts», translated by Joel Anderson, The MIT Press Cambridge, Massachusetts, 1995, pp. 107-108.

14 -Axel Honneth, «Reconnaissance et reproduction sociale», traduction: Michelle Lapierre et Emmanuel Renault, in La reconnaissance à l'épreuveExplorations socio-anthropologiques, éds: Jean-Paul Payet et Alain Battegay, Presses Universitaires du Septentrion, 2008, p. 51.

15 -Axel Honneth, «The Struggle for Recognition: The Moral Grammar of Social Conflicts», op. cit. p. 108.

16 - Ibid. p. 111.

17 - Ibid, pp.119-120.

18 - Ibid,pp. 128-129-130.

19 - Axel Honneth, «Reconnaissance et reproduction sociale», op. cit,p. 52.

20 - Ibid, p. 128.

تصبح لنماذج الاعتراف هذه التي يقدمها أكسيلهونيت قيمة مضافة عندما نقحم مكون الاعتراف في الحياة السياسية والاجتماعية؛ إذ إنها تؤمِّن سلامة الإنسان وحريته -خاصة الداخلية-، وتوسع المفهوم التقليدي للأخلاق، وتحفز الحراك الاجتماعي والمقاومة السياسية(عندما تُنتَهك نماذج الاعتراف الهونيتي، تساعدنا على تفسير الدوافع التي تؤدي إلى ظهور الحراك الاجتماعي والمقاومة السياسية).

إن مزايا الاعتراف، إذن، كثيرة، إلا أن الظفر بها يفترض احترام مجموعة من الشروط، أهمها احترام مبدأ الشمولية، حيث يشترط في الاعتراف أن يكون شاملا للجوانب الثقافية والاقتصادية والسياسية، أي أننا نكون أمام اعتراف ثقافي واعتراف اقتصادي واعتراف سياسي؛ وذلك لأن الوجود الاجتماعي المعقد للإنسان يُحتِّم علينا الاعتراف بكل جوانبه، لأنه من دون ذلك لن يحقق الاعتراف المقصود منه، بل سيترتب عن أصنافه الثلاثة ثلاثة أصناف من الظلم أو ثلاثة أشكال من المس بكرامة الإنسان إذا حرم الفرد من تلك الاعترافات: الظلم الثقافي، والظلم الاقتصادي، والظلم السياسي.

حضر هذا الارتباط بين جوانب الاعتراف عند نانسي فرايزر التي تبنت رؤية مزدوجة -تجمع بين ما هو اقتصادي وما هو ثقافي- في تناولها لإشكالية الاعتراف؛ إذ يجب، في نظرها، على كل ممارسة اجتماعية أن تُعالج باعتبارها ممارسة اقتصادية وثقافية في الوقت ذاته ضمن سياق مشروع يدمج إعادة التوزيع والاعتراف في إطار سياسي شامل (Comprehensivepoliticalf ramework). [21] على أساس هذه الرؤية احتفظت نانسي فرايزر بمقاربتها خارج السياق الفكري الذي يقيم تمايزا بين الثقافي والاقتصادي، واعتبرت أن هناك رسما كاريكاتيريا مُشوِّها للواقع الفعلي و مُجانِبا للحقيقة في الكثير من جوانبها، قد تَـمَّ رسمه مع سقوط الاشتراكية السوفياتية من طرف الذين يتحدثون عن أفول الباراديغم المادي، الذي يعتمد التحليل الاقتصادي للمشاكل الاجتماعية و القائم على تيمة « المصلحة» و»الاستغلال»و»إعادةالتوزيع»، ويتحدثون، في المقابل، عن الانتقال إلى الباراديغم الثقافي القائم على تيمة «الهوية»و»الاختلاف»و»الهيمنة الثقافية»و»الاعتراف»، والنابع عن الرغبة في تصحيح تهميش الباراديغم السابق (المادي) للمكون الثقافي. رفضت فرايزر الآراء التي صورت هذا الانتقال وكأنه انتقال من باراديغم الاقتصاد إلى باراديغم الثقافة، واستبعدت ما تسميه "الثنائية الجوهرية""Dualisme substantialiste» المعتمدة في النزعة الاقتصادية (Economisme) والنزعة الثقافية (Culturalisme)؛ ومرد ذلك أن "الثنائية الجوهرية" تبقى غير ملائمة لا على المستوى المفاهيمي ولا على المستوى السياسي: على المستوى المفاهيمي تشيِّد ثنائية متناقضة (Dichotomie) بين الاقتصاد والثقافة وتعالجهما كمجالين منفصلين؛ وعلى المستوى السياسي تعزز الثنائية المتناقضة الموجودة بين السياسة



Rihanat_No44 modif 1.indd 60-61 11/02/2018 23:57:34

الثقافية والسياسة الاجتماعية، وتضعنا أمام مهمتين سياسيتين مستقلتين، وشكلين منفصلين من النضالات السياسية؛ لهذا لا يكون اعتماد الثنائية الجوهرية حلا للمشكلة، ولكنها واحدة من أعراضها. وعليه، يكون من محاسن الرؤية الثنائية التي تقترحها فرايزر أنها تحجم عن إعـادة إنتاج الثنائيات الإيديولوجية المميزة لعصرنا، وتمدنا بآلية مفاهيمية للتساؤل والتغيير، وتمنحنا إمكانات لهزم الانفصام، وتوجهنا إلى التفكير بطريقة مندمجة تأخذ في الاعتبار كلا من إعادة التوزيع والاعتراف دون اختزال واحدة في الأخرى، وتقف على تداخلهما، وتُجمِّع تأثيراتهما المتبادلة، وتفحص التفاعلات السببية بين شكلي الهيمنة (الثقافية والاقتصادية).[22]

أما إذا أردنا أن نرسخ الاعـتراف في المجتمع، فإن ذلك سيقتضي منا العمل على واجهتين: واجهة ذاتية وواجهة موضوعية مؤسساتية.على الواجهة الذاتية، نعمل على خلق القناعات، وبناء الفكر الذي يؤمن بالاعتراف، وتهييئ الأفراد سيكولوجيا لتقبل الآخر، كما نركز على الجوانب القيمية والأخلاقية من خلال الاستثمار في القيم وقواعد السلوك؛ ويمكن أن تُوظّف في ذلك شتّى الوسائل بما فيها التربية بأدواتها ووسائطها المختلفة. أما على الواجهة الموضوعية المؤسساتية، نعمل على مأسسة منطق الاعـتراف عبر القواعد والقوانين التي تقوم عليها المؤسسات، وعبر النماذج الثقافية المُوجِّهة التي تنتجها أو تتبناها المؤسسات، بحيث نجعل البنية القانونية المُنظِّمة لمختلف مؤسسات المجتمع بعيدة عن أي تمييز ثقافي (عرقي أو جنسي أو ديني...). غير أنه لا يمكننا الاعتماد على جانب دون آخر، لأن ما نبنيه على جهة يمكن أن يهدمه ما يُفرَز من الجهة المقابلة، مما سيجعل النتائج المحققة في نهاية الشوط غير النتائج المأمولة. أما إذا اشتغلنا على الواجهتين معا، فإن أثر العمل على الجبهة الذاتية سيمتد حتى الجبهة الموضوعية والعكس صحيح، لأنهما يتكاملان ويعززان بعضهما البعض بشكل دائم.



الهوامش

21 - Nancy Fraser, «Social Justice in the Age of Identity Politics: Redistribution, Recognition, and Participation» InRedistribution or Recognition? A Political-Philosophical Exchange,Nancy Fraser and Axel Honneth.Translated by Joel Galb, James Ingram, and Christiane Wilke,Verso, London, New York, 2003, p. 93.

22 - Nancy Fraser, «Penser la justice sociale: questions de théorie morale et de théorie de la société», in Qu'est-ce que la justice sociale?Reconnaissance et redistribution, éditionétablie et traduction par Estelle Ferrarese, éditions la découverte, 2005, pp. 66-67-68.

خاتمة

إن التفكير في التعدد والاختلاف الثقافي أضحى ضرورة اجتماعية وسياسية في يومنا الحاضر، نتيجة توالي الدعوات إلى الانفصال في الكثير من البلدان. حقيق أن هناك حالات لا يصدق فيها ذلك المطلب لأن هناك بعض المطالب التي قد تكون نتيجة مزايدات سياسية أو نتيجة تدخل قوى أجنبية تحرض على الانفصال من أجل تحقيق مصالحها.إذا استثنينا تلك الحالات، فإنه قد يبدو ذلك -أي مطلب الانفصال- مطالبا معبرا عن حق الشعوب في تقرير مصيرها، بيد أننا قبل أن نعده كذلك فإننا نراه من زاوية أنه تعبير عن فشل في إمكانات العيش المشترك وفي آليات تدبير الاختلاف والتعدد الثقافي، ومن زاوية أن السير قدما في النزعة الانفصالية لن نجد حدا لها نتيجة التركيبة الهجينة التي أضحت تميز المجتمعات المعاصرة، قد نصل إلى تجزيئ المجزأ؛من هنا نرى أن أتباع تلك السبل المقترحة أعلاه في تدبير الاختلاف يحافظ على أهميته وراهنيته، إلا أنه يستوجب منا تعميق النظر فيها من خلال الفهم العميق لطبيعة المجتمع ولوضعه الجيواستراتيجي، والتحليل الدقيق للعوامل التي تدفع نحو المطالبة بالانفصال، قصد أجرأة تلك السبل عندما نكون بصدد مقاربة حالة كل بلد على حدة، ما دام أنه لا يمكننا أن نجد مقاربة نموذجية تنطبق على كل المجتمعات. ■

المراجع

- دينيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة منير السعيداني، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، مارس 2007.
- محمد نورالدين أفاية، الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة، الدار البيضاء، 1991.
- معزوز عبد العالي،فوكو وميكروفيزياء السلطة، مجلة حكمة الالكترونية، 16 أبريل 2015. (فوكو-وميكروفيزياء-السلطة -www.hekmah.org/2).
- Dorais, Louis-Jacques, et Edmund (Ned) Searles: «Identités inuit/lnuitidentities», 2001, Études/Inuit/Studies, 25, 1-2, pp. 9-35.
- Fanon,Frantz: «Les Damnés de la Terre», Paris: Maspero, 1961.//«The Wretched of the Earth»,Translatedfrom the French by Richard Philcox,withcommentary by Jean-Paul Sartre and Homi K. Bhabha, Grove Press, New York, 2004.
- Fraser, Nancy: «Abnormal Justice» in Justice, Governance, Cosmopolitanism, and the Politics of Difference - Reconfigurations in a Transnational World, Kwame Anthony Appiah, Seyla Benhabib, Iris Marion Young, Nancy Fraser, Distinguished W.E.B. Du Bois Lectures 2004/2005, pp. 117-142.
- Fraser, Nancy: «Penser la justice sociale: questions de théorie morale et de théorie de la société», in Qu'est-ce que la justice sociale? Reconnaissance et redistribution, éditionétablie et traduction par Estelle Ferrarese, éditions la découverte, 2005.
- Fraser, Nancy: «Social Justice in the Age of Identity Politics: Redistribution, Recognition, and Participation» InRedistribution or Recognition? A Political-Philosophical Exchange, Nancy Fraser and Axel Honneth.Translated by Joel Galb, James Ingram, and Christiane Wilke,Verso, London, New York, 2003.
- Honneth, Axel: «Reconnaissance et reproduction sociale», traduction: Michelle Lapierre et Emmanuel Renault, in La reconnaissance à l'épreuve,Explorations socio-anthropologiques, éds: Jean-Paul Payet et Alain Battegay, Presses Universitaires du Septentrion, 2008.
- Honneth,Axel: «The Struggle for Recognition: The Moral Grammar of Social Conflicts», translated by Joel Anderson, The MIT Press Cambridge, Massachusetts, 1995.
- Kymlicka, Will: «La citoyenneté multiculturelle, une théorie libérale du droit des minorités», traduit de l'anglais par Patrick Savidan, Editions de la Découverte, Paris, 2001.
- Malinowski,Bronislaw:«Les dynamiquesde l'évolution culturelle, Recherche sur les relations raciales en afrique», traduit de l'anglais par Georgette Rintzler, ouvrage publié par Phyllis M. Kaberry, 1941.
- Taylor, Charles: «The Politics of Recognition», in Multiculturalism: Examining The Politics of Recognition, Edited and Introduced by Amy Gutmann, Princeton UniversityPress, Princeton, New Jersey, 1994.

Rihanat_No44 modif 1.indd 62-63 11/02/2018 23:57:34

نصوص وإبداعات



أول إنسان عاقل منذ ثلاثمائة ألف عام
في بلادنا و سؤال إدراك الكون و التقدم ؟

ذ.عبدالكبير مولوع

في جبل إيغود في بلاد أحمر التي دب على سطح أرضها منذ العصر الحجري القديم أول إنسان عاقل دون أن يعقل محيطه، حيث ظل فيها على مدى ثلاثمائة ألف عام هائما على وجهه دائم الخوف، مذعورا مستلب العقل مكبلا بقيد الغريزة التي نشأ بها، وحكمت عاطفته، و أدارت جوارحه .

ولم يكن للعقل في جمجمته من سلطان إلا بما يتيحه لون خلايا الدماغ قبل أن يتحول من أبيض إلى رمادي، أكسبته إياه هذا اللون أرمدة أيامه و لياليه الصعبة على طول العصور المتعاقبة، وهي تحترق بنيران الأسر و العبودية. كما صنعت سلاسلها الطبيعة بوجهها المتجهم تجاهه، وأياديها السوداء الخشنة القاسية عليه، في ظلمات الكهوف والأدغال .

ولم يصل إلى عصر تبديد الظلمة إلا حين توشحت خلايا الدماغ بهذا اللون الرمادي المكتسب في الظلمة، فتحولت إلى طاقة نورانية أشعل بها النار التي أضاءت جوانبه، فكانت بداية الثورة على العالم من حوله، لتبدأ مسيرته في إشاعة الضوء متخذا من باقي الكائنات الجامدة و الحية، من أشجار و نباتات و حيوانات برية و بحرية و أطعمة و مساكن و أسلحة خاض بها على طول الحقب و العصور معارك ضارية من اجل الحياة و العيش و البقاء.

ولابد أنه قطع أشواطا في غزو عالمه المظلم و عاش في خصم معركته الأزلية حروبا دائمة كان فيها منتصرا تارة و منهزما تارة أخرى.

غير أن غزواته تلك لم توصله إلى التمكن من تحقيق نصره الكبير ألا و هو إرساء أسس حياة مدنية حافظة لكرامته، كما أوصلت إنسان بلاد الحضارة في قارات أخرى في أواخر الرحلة البشرية في طريق بحثها عن نواميس الكون و أسرار الوجود.

لربما ظل إنسان إيغود في بلاد احمر أسير معتقدات المغلوب على أمره طالما أن عقله ظل مرهونا لنداء أصوات عوالم أخرى غيبية غير العالم الذي يحيا فيه بحسه مفكرا و متحركا لأنه صنع في خضم حياة الخوف و الذعر التي

ظلت تلازمه إلى آخر مطاف سعي البشرية لتحسين أحوالها، صنع السلاسل التي كبلت عقله و حجرته فضرب بينه و بين ما جرى من تطور في بلدان ما وراء البحرين نفس الجدار الحجري في جزيرة العزلة الأبدية دون مغامرة البحث في المجاهيل و ما يقتضي ذلك من ركوب سفينة الإبحار في مجاهيل القارات الأخرى ليكتشف ما سبقه إخوته لاكتشافهم عوالمهم و أخضعوها لرغباتهم و إرادتهم حتى أضحوا غالبين.

إنه الخوف الذي أربك الكيان و منع عنه الاستواء المطلوب لطاقة الفكر لكي تتجمع بعد شتات و إتلاف فضاعت مئات الآلاف من السنين بين أدغال غيبة الوعي، وضياع العقل.

تناسل جنسه و تفرق في القارات، ففي هذه الأخيرة صادف ما شكل حتمية تطور العلاقة مع الكون، في أواخر عهود الضياع، فكانت بداية الإنسانية الحقيقية و كانت بداية القطيعة مع سطوة الغريزة على التعاطي مع الكائنات المرئية و الغيبية، و لأنه أدرك بأن التطور يأتي من التواصل مع المحسوس و الملموس فإن الإنسان العاقل في القارات الأخرى حول هناك خوفه وذعره إلى قلق. فكانت بداية بناء الحضارات و بداية بناء المجتمع، الآدمي الخاضع لمنطق التوازن و الاستقرار. فزرع الأرض و أخصبها و جلب لنفسه البأس من الحديد ليقهر أعدائه و صلابة قوى الطبيعة القاهرة. روض الخيول و صنع السفن و اكتشف البحار و حرك ما كان راسيا فجاب الأقطار كلها، و سخرها لبناء عالم يجلب له الراحة و السكينة.

وهو في مسيرته كان يكافح من أجل التغلب على قلقه العقلاني الايجابي الذي بنى به في خضم هذا الكفاح ما يبهر عقل غيره ممن ظلوا أسيري الخوف و الذعر الذي لا يزال إلى اليوم متحكما في السلوك و النظر إلى الكون و الآخر .

انه الخوف المرضي الموروث المتحكم هو أصل تخلف سلالة إنسان إيغود، الخوف من التخلص مما غيب العقل منذ أن صنع الخرافة و الأسطورة و سيج بها عقله، و مضى هائما على وجهه دون قدرة على رفع رأسه لتأمل الكون من حوله .

وبهذا الجمود و الاكتفاء بالعيش في نفس الدوائر المعتمة لم يتمكن إنسان إيغود من الزحف إلى الأمام ليفتح عهد الحضارة كما تفتحت في البلاد الأخرى من وراء البحار التي انسحبت قبل ملايين السنين و خلفت من ورائها كنوزا اكتشفها غيره كما اكتشف جمجمته التي تشبه جماجم سلالته من الأقوام التي تعاقبت على العيش في نفس البلاد و هم لا يزالون على الحال مكبلين بنفس السلاسل و الأغلال في زمن غزي فضاؤه ورصعت سماؤه بشتى أنواع العقول و الأقمار الصناعية التي زادت من غلبة و تحكم إنسان ما وراء البحار و لا يزال هذا الأخير في سيره المضطرد متقدما و لا تزال حكاية فتوحاته لم تكتمل.

Rihanat_No44 modif 1.indd 64-65 11/02/2018 23:57:35

قراءة في كتاب

في تحليل الحقل الدلالي لمفهوم « الشرافة» ..نسق تقاطع سلطات الدولة والمجتمع بشمال المغرب قبل الحماية



أسامة الزكاري

تكتسي العودة المتجددة للتأمل في عناصر الثابت والمتغير في نظيمة تطور النسق السياسي بشمال المغرب، قيمة كبرى لفهم الكثير من إبدالات الحقل الدلالي لمختلف المفاهيم المهيكلة للعمل السياسي ببلادنا، منذ انبثاق معالم الدولة المغربية المستقلة عن المشرق العربي وإلى يومنا هذا. وتزداد أهمية الموضوع بروزا، مع انفتاح قطاعات واسعة من الباحثين المنتمين لفروع علمية شتى على الموضوع من أجل إعادة مقاربة وتحيين مستجداته العلمية. في هـذا الإطـار، برزت دراسات سوسيولوجية وتاريخية وقانونية، مختلفة من حيث رؤاهـا ومناهجها التنقيبية، لكنها متقاطعة من حيث آفاقها التأصيلية المؤطرة للظواهر وللتحولات الماضية التي لازالت ترخي بظلالها على الكثير من المبادرات والمواقف التي تطبع المشهد السياسي المغربي الراهن، سـواء في إطـار جهود الدولة لامتلاك زمام المبادرة والتحكم، أم في إطار جهود المجتمع لتدعيم عناصر شرعية مجمل السلط المتداخلة داخله، بما يرتبط بذلك من مصالح ومن نفوذ ومـن امتيازات مادية ورمزية كثيرة ومتداخلة. ولعل من العناصر المتجددة في مقاربة هذا المجال، تلك المرتبطة بمفهوم « الشرافة « وبأدوار هذا المفهوم في ترتيب الحياة المحلية، بالجهات وبالأقاصي، وفق منطلقات كانت تمنح لهذه الجهات الكثير من المقومات للتخلص من سلطة « المركز «، في مقابل اكتساب الكثير من عناصر الاستقلال في تدبير الشأن العام المحلي، وفي تأطير الحياة الجماعية بالنسبة لجمل مكونات المجتمع، على الأقل منذ بداية القرن 15 م، تاريخ بروز الدول والإمارات المغربية الأولى على قاعدة مبدأ الشرافة وسلطة الشرفاء.

رغم أن هذا الموضوع قد ظل مجالا مفتوحا للإغناء المتواصل وللبحث المستدام، فإن الكثير من خباياه لاتزال تستهوي قطاعات واسعة من مؤرخي المغرب الـراهـن، بالنظر لقدرة هذا المجال على تقديم الكثير من التفسيرات الكفيلة بتقديم الأجوبة الضرورية لفهم أنساق الخطاب والفعل السياسي الذي أثمر نماذج الدولة المغربية الحديثة، على الأقل مع وصول الشرفاء السعديين ثم العلويين إلى الحكم خلال القرنين 15 و17





الميلاديين، إلى جانب اكتساب العناصر المدخلية لتفكيك بنية السلط المحلية التي نشأت في شمال المغرب في سياق ظروف المواجهة المزدوجة ضد هيمنة « المركز « أولا، ثم – ثانيا – ضد تبعات آفة الغزو الإيبيري الذي ضرب بلادنا منذ مطلع القرن 15 م عقب احتلال البرتغال لمدينة سبتة سنة 1415 م، وما تلى ذلك من سقوط سريع وامتثال للكثير من الثغور المغربية بالساحلين المتوسطي والأطلنتي للبلاد. ومع ازديـاد مخاطر تفكك الدولة المغربية عند نهاية عهد حكم المرينيين ووصول الوطاسيين إلى السلطة، ازداد نزوح المجتمع نحو بلورة رؤية سياسية بديلة، من خلال تجاوز الإطار الخلدوني الضيق المفسر لنشأة الدول وانهيارها، وهو الإطار المتمركز حول مقولتي « العصبية « و» دعوة حق «. وقد اتخذ هذا التجاوز بعدا تجديديا مع تبلور مفهوم « الشرافة « أو « الشرف « كإطار ناظم لعناصر الشرعية التاريخية المبررة لوجود الدولة المركزية من جهة، ثم لتبرير سطوة الزعامات المحلية في الجهات وفي الأقـاصي وفي الهامش من جهة ثانية.

داخـل هذا المسار الطويل المدى من التكون ومن التطور، كانت منطقة الشمال الغربي للمغرب، أو ما يعرف تاريخيا بمنطقة جبالة، حضنا واسعا لميلاد سلط دينية على أساس مبدأ الشرافة، كمقدمة لإنشاء كيانات سياسية مستقلة عن المركز في تدبير الشأن المحلي أولا ثم في توليد كم هائل من الإواليات المتحكمة في تبرير السلط المحلية، الرمزية والمادية، مثلما هو الحال مع مفاهيم « البركة « و» الكرامات « ... فوقع تداخل بين حقلين مختلفين في وظائفهما وفي بنياتهما، حقل الممارسة السياسية التدبيرية اليومية، ثم حقل الاستثمار المتواصل للرموز الصوفية والشريفية لتأطير الحياة العامة، بالنسبة للفرد وللجماعة. وقد ساهم الاستقرار الأول للأدارسة بشمال البلاد بعد وفاة إدريس الثاني، إلى تحول ضريح القطب مولاي عبد السلام بن مشيش – لاحقا – إلى حرم لممارسة السلطة الروحية على مريدي المنطقة وإلى مجال لتعزيز مجمل الشرعيات المتطلعة لبسط نفوذها سواء على مستوى التدبير السياسي العام، أم على مستوى الاستجابة للنهم الروحي لدى الفرد في علاقته بذاته أولا، ثم في علاقته بمحيطه ثانيا.

نظرا لأهمية هـذا البعد في ترسيخ صفة التلازم بين مجمل المشاريع السياسية التي عرفها شمال المغرب، منذ القرن 15 م إلى يومنا هذا، فقد أصبح ضروريا العودة للبحث في خبايا الموضوع لاستكناه عتماته عبر تفكيك العديد من الأسئلة المهيكلة، من قبيل، على سبيل المثال لا الحصر، لماذا ظل الزعيم عبد الخالق الطريس، ومعه قيادة حزب الإصلاح الوطني خلال عهد الاستعمار، حريصا على تنظيم زيارات دورية للحرم المشيشي بشكل مسترسل ؟ وما علاقة ذلك بجهود تدعيم الشرعيات الدنيوية بالاستناد إلى نسق الخطاب الصوفي المتمحور حول مقولة « الشرافة « ؟ وكيف استطاعت هذه المقولة أن تكتسب استمراريتها التاريخية لتجد تعبيرات شتى عن مضامينها وعن أدواتها في أدائنا السياسي الراهن ؟ ... أسئلة متناسلة، تثيرها قراءة العمل الجديد للأستاذ محمد عمراني، الصادر سنة 2015، تحت عنوان « الشرف والمجتمع والسلطة السياسية بالشمال الغربي المغربي بين النصف الثاني من القرن 9 – 13 ه / ونهاية 15 – 19 م «، وذلك في ما مجموعه 385 من الصفحات ذات

Rihanat_No44 modif 1.indd 66-67 11/02/2018 23:57:36

الحجم الكبير. ويمكن القول إن هذا العمل، الذي هو في الأصل أطروحة جامعية تقدم بها صاحبها لنيل شهادة دكتوره الدولة في التاريخ سنة 2001، يشكل استثمارا أكاديميا لنتائج جهود متواصلة لتفكيك مفهوم « الشرافة « داخل بيئته المحلية بشمال المغرب، استنادا إلى توظيف عميق لركام هائل من الوثائق والمخطوطات والمصادر والدراسات القطاعية المتخصصة، الكولونيالية والوطنية المجددة. وقد سمح هذا الاستثمار بإعادة مقاربة ظاهرة « الشرافة « داخل سياقاتها المميزة، وفي امتداداتها الجغرافية الواضحة في شمال المغرب، وبأدوارها المركزية والموجهة بالنسبة للدولة وللمجتمع المغربيين الحديثين. ولعل هذا ما أدركه الأستاذ محمد المنصور في كلمته التقديمية، عندما قال : « إن هذا الشرف الإدريسي بشمال المغرب يشكل جوهر دراسة الأستاذ محمد عمراني، وهي مساهمة أكاديمية موثقة من شأنها أن تساعدنا على فهم أفضل للشرف كظاهرة اجتماعية سياسية، وكمجال يتمفصل حوله ما هو ديني وما هو اجتماعي سياسي، في منطقة بالغة الحساسية ليس فقط لكونها معقلا تاريخيا للشرفاء، ولكن كذلك لكونها مجالا لرهانات أخرى متداخلة مع الشرف ولا تقل عنه أهمية، إذ كانت المنطقة تمثل دائما الخط الأمامي للمواجهة مع العدو، وفي نفس الوقت البوابة التي لا تستغني عنها أية دولة في تفاعلها مع العالم الخارجي «.

في نفس السياق، سعى الأستاذ حسن الفكيكي إلى توضيح التباسات الموضوع، في كلمته التصديرية، عندما قال : « موضوع البحث عن الوجود الإدريسي في مرحلته الثانية بعد مغادرة عاصمة الملك فاس سنة 313 ه، لم تستوف الدراسات التاريخية جميع أركانه ومواطنه المجتمعة. وإذا كان الدكتور محمد عمراني قد وقع اختياره على الانتشار الإدريسي في بيئة الشمال الغربي، فإنه كان على علم تام أنه سيقتحم وسطا طبيعيا وعرا، واجتماعيا، ظاهرا وباطنا، في غاية الصعوبة والتعقيد. ولكن الصعوبة الحقيقية هي التي كانت في انتظاره، لقد كان عليه وجوبا ارتياد شعبها ووهادها، وأعاليها وبسائطها، بحثا عن أقدم صنوف الوثائق ... «.

لا شك أن قدرة الأستاذ عمراني على اختراق « حقل ألغام « هذا الموضوع، قد جعلته يقدم عملا غير مسبوق في مقاربة قضايا « الشرافة « بشمال المغرب، سواء على مستوى التطورات المفاهيمية والتاريخية والمجالية الكبرى المرتبطة بخصائص البيئة المحلية الخاصة بمنطقة شمال المغرب، أم على مستوى الامتدادات التأطيرية التي اضطلعت بها خريطة « الشرفاء « بالمنطقة المذكورة، مع ما ارتبط بذلك من امتيازات ومن مصالح مادية ومن أنساق صوفية رمزية لا شك أن الكثير من تمظهراتها، المادية والرمزية، لازالت قائمة إلى يومنا هذا. وبذلك، استطاع الأستاذ محمد عمراني تقديم جهد أكاديمي أصيل، لا شك وأنه يقدم الكثير من الأجوبة التفكيكية لبنية خطاب « الشرافة « ولحمولاته الاجتماعية والسياسية المركبة، وهي الحمولات التي لازالت تمارس سلطها المتداخلة داخل وسطها السياسي والاجتماعي بمغرب الزمن الراهن.

للاقتراب من سقف الإطار التاريخي المفسر لظروف نشأة المراكز الحضرية والروحية الكبرى بشمال المغرب، يمكن أن نستشهد ببعض مما أدرجه المؤلف بخصوص أدوار مدينة أصيلا خلال المرحلة التاريخية الممتدة بين نهاية الحكم الإدريسي المركزي بفاس، وإلى نهاية مرحلة الاحتلال الإيبيري للمدينة. ففي هذا الاستقراء اختزال لمجمل خصائص الأدوار الروحية والمجتمعية التي أضحت تضطلع بها المراكز الإدريسية في توجيه الوقائع الكبرى داخل مجاليها الإقليمي والوطني الواسعين. في هذا الإطار، يقول محمد عمراني : « توجد على الطريق من طنجة إلى فاس مدينة أصيلا التي أسسها الأدارسة على الساحل المقابل لأنقاض زيليس الرومانية في نفس التاريخ الذي أسسوا فيه البصرة. ولكنه (أي المؤرخ البكري) لا يذكر تاريخا محددا لهذا التأسيس. كانت المدينة من نصيب يحيى في إطار عملية التقسيم، أي أنها كانت موجودة قبل سنة 213 / 828.

ويؤكد هذا تاريخ أول نقد ضرب بدار سكة أصيلا سنة 209 / 824 في عهد مولاي إدريس الثاني. أخضعها القاسم بن إدريس الثاني لنفوذه وسورها وشيد بها قصرا وتركها لأبنائه. وقد لعبت المدينة دورا هاما في الحياة الاقتصادية، باعتبارها مركزا تجاريا نشيطا على ساحل البحر المحيط ومجالا فلاحيا خصبا أيضا ... ويجوز القول إن البصرة وأصيلا كانتا بعد فاس من أهم مواطن الأدارسة بشمال غرب المغرب ... « (ص ص. 104 – 105). ويضيف الأستاذ عمراني تجميع معطياته لإبراز أدوار مدينة أصيلا خلال مرحلة الغزو الإيبيري للقرن 15 م قائلا: « نعلم أن محمد الشيخ الوطاسي كان يحكم إمارة شاسعة في شمال غرب المغرب، قاعدتها مدينة أصيلا : امتدت شرقا من بني جرفط حتى بني زكار وغربا حتى العرائش وأصيلا، وشمالا حتى نهر تهدارت، وشرقا إلى تل الكروم والوادي الكبير الذي ينبع في بني عروس وبني احمايد ... أضف إلى ما سبق أن إمارة بني راشد لم تكن تتوفر على قاعدة اقتصادية صلبة تضمن لها موارد ثابتة، فالتجارة البحرية مع أوربا، عن طريق المراسي المتوسطية والمحيطية أصبحت مستحلية بعد سيطرة البرتغاليين والإسبان على المنافذ البحرية الرئيسية، زيادة على كونها عاشت حصارا شبه دائم، بحكم سيطرة البرتغاليين على الأراضي الواطئة بأحواز أصيلا، وشنهم لغارات متواصلة على الجبال المطلة على الواجهة الأطلسية، كبني جرفط وبني ومراس وجبل حبيب وبني عروس، التي أصبحت بمثابة حديقة خلفية لأصيلا، كانت تتزود منها الحامية البرتغالية بما هي في حاجة إليه من مواد غذائية وغيرها ... « (ص ص. 139 – 140).

على هذا المنوال، انساب المتن ليقدم معطيات دقيقة وجزئيات فاحصة، لا شك وأنها تساهم في ملامسة مجمل العناصر المفسرة للمسار العام الذي انتظمت فيه وقائع تاريخ مدينة أصيلا خلال القرنين 15 و16 الميلاديين. ■



Rihanat_No44 modif 1.indd 68-69 11/02/2018 23:57:36

إصدارات

الوصية الفكرية الأخيرة



محمد أركون
منشورات الزمن

ضمن منشورات دار الساقي، صدرت الترجمة العربية لكتاب المفكر الراحل محمد أركون، الموسومة بـ»قراءات في القرآن»، وهي من توقيع هاشم صالح، وتقع في 688 صفحة من الحجم المتوسط.

يتطرق هذا الكتاب، الذي اعتبرته جريدة «لوموند» الوصية الأخيرة لمحمد أركون، للموضوعات الأكثر حساسية وأهميّة كالشريعة ووضع المرأة في المجتمع الإسلامي، حيث يعد هذا الكتاب الصادر لأول مرة عام 1982 أساسيا في تاريخ مسار فكر محمد أركون. فيما يَعتبِره الكاتب نفسه بمنزلة البذرة الأولى التي صدرت عنها كل مؤلّفاته اللاحقة، وقد كرس السنوات الأخيرة من حياته لتنقيحه وتعديله.

يحشد أركون، في هذا العمل، كل إمكانات علوم الألسنيات الحديثة والدلالات السيميائية وتاريخ العقليات والاجتماع، بغية تفكيك الخطاب التقليدي الموروث عن القرآن. كما يتطرق إلى الموضوعات الأكثر حساسية وأهمية اليوم: مكانة الكتاب المقدس بصفته كلام الله، الشريعة ووضع المرأة في المجتمع الإسلامي، الجهاد، الإسلام السياسي... الخ. ويثبت خلال ذلك كله أن كل قراءات القرآن وتفاسيره هي بالضرورة «تركيبات بشرية». إذ يشهد هذا الكتاب على مدى خصوبة المناهج الجديدة التي دشنها محمد أركون قبل ما يقارب النصف قرن، وسيظل ذا أهمية حاسمة بالنسبة إلى النضال ضد كل أنواع الأصوليات.

جدير بالذكر أن محمد أركون (1928-2010) باحث ومؤرّخ ومفكر جزائري. أحد كبار الشخصيات البارزة في علم الإسلاميات المعاصر. كتب باللغتين الفرنسية والإنكليزية، وترجمت أعماله إلى عدد من اللغات، ومن مؤلفاته «أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟»، «نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية»، «من منهاتن إلى بغداد: ما وراء الخير والشر».

الإرهاب كما نشرحه لأولادنا



الطاهر بنجلون
منشورات الزمن

ضمن منشورات دار الساقي، صدرت الترجمة العربية لكتاب الطاهر بن جلون، الموسوم بـ»الإرهاب كما نشرحه لأولادنا». إذ تقع هذه الترجمة، التي أنجزها المترجم جان هاشم، في 160 صفحة من الحجم المتوسط.

يطرح الكتاب السؤال التالي: من هم هؤلاء الشباب الذين يفجرون أنفسهم ومن حولهم باسم الدين؟ من هم هؤلاء الذين يلجأون إلى العنف والقتل لإيجاد معنى لحياتهم ولموتهم؟ وانطلاقا من هذا السؤال، يسعى بنجلون إلى التعريف بظاهرة الإرهاب، من خلال محاورة تلعب فيها ابنته دور المحاورة التي تطرح الأسئلة.

يحاول الطاهر بن جلون أن يجيب عن أسئلة كثيرة تتبادر إلى ذهننا عند حدوث أي عمل إرهابي. ويستعرض تاريخ كلمة «إرهاب» منذ الأحداث الأكثر دموية في الثورة الفرنسية وصولاً إلى ما يشهده الوضع الحالي من انفلات الأصولية الإسلامية من عقالها. وأمام قلق ابنته التي تطالبه ببريق أمل بسيط، يؤكد بن جلون أن الرهان هو على التربية، على أمل المساهمة في نشأة جيل من الشباب متحرّر من الأوهام التي تجعله يصدّق أي شيء.

جدير بالذكر أن الطاهر بن جلون كاتب وروائي مغربي مقيم بباريس، وهو حائز على جائزة الغونكور سنة 1987 «جائزة دبلن للآداب» سنة 2004 و»جائزة إمباك الأدبية» سنة 2000، صدر له عن دار الساقي «عشرُ ليالٍ وراوٍ»و»عينان منكسرتان».

مؤلف جماعي حول «الترجمة وإشكالات المثاقفة»



صدر مؤخرا عن منتدى العلاقات العربية والدولية القطري مؤلف من 848 صفحة تحت عنوان «الترجمة وإشكالات المثاقفة». وقد قام بمهمة التنسيق وتقديم الكاتب الدكتور وليد حمارنة.

يضم هذا الكتاب الضخم الأبحاث والدراسات العلمية، وكذا المداخلات التي تقدم بها باحثون أكاديميون وخبراء في مجال الترجمة شاركوا في المؤتمر الدولي الثاني الذي نظمه منتدى العلاقات العربية والدولية تحت عنوان: «الترجمة وإشكالات المثاقفة» بمدينة الدوحة في الفترة الممتدة من 25 نونبر إلى 26 نونبر 2015.

يحتوى الكتاب على دراسات علمية مهمة توزعت على محاور عديدة أهمها الترجمة الأدبية وإشكالاتها وترجمات القرآن الكريم والترجمة وإشكالات التعددية الثقافية، والترجمة وإشكالات الاستشراف، وإشكالات الترجمة من اللغات الشرقية، والترجمة والإشكالات السياسية. ويضم الكتاب بشكل أساسي دراسات باللغتين العربية والإنجليزية ساهم بها باحثون وخبراء مرموقون على غرار إمام عبد الفتاح إمام وعبد الواحد لؤلؤة وجمال شحيد والزواوي بغورة وعبد الله إبراهيم وفريال غزول وفاضل بيات والمرحوم ثائر ديب وإغناسيو فيراندو وأليس غوثري وغيرهم.

وجب التأكيد على أن المشاركة المغربية في هذا المؤتمر جاءت من خلال دراسات رصينة تقدم بها الباحثون المغاربة عبد السلام بنعبد العالي ومراد الخطيبي والمصطفى الطوبي وعبد النبي الخراقي وبوعزي عسام وأحمد الصادقي.

كتاب جماعي يسعى إلى إضافة جذرية إلى البلاغة



صدر في الآونة الأخيرة كتاب جماعي بعنوان «بلاغة الجمهور.. مفاهيم وتطبيقات»، عن دار نشر شهريار بالعراق. يقع الكتاب في 490 صفحة، وحرره الناقد العراقي صلاح علي حاوي، والباحث المغربي عبد الوهاب صديقي.

يتضمن الكتاب أربع عشرة دراسة لباحثين متخصصين في تحليل الخطاب، واللسانيات،

Rihanat_No44 modif 1.indd 70-71 11/02/2018 23:57:36

إصدارات

والبلاغة الجديدة، قدّموا فيها المفاهيم الأساسية لبلاغة الجمهور، ومنهجيات تحليلها، وأمثلة تفصيلية لتطبيقها على الخطاب الاجتماعي، والسياسي، والديني، والأدبي، والإعلامي. إذ يحلل الكتاب استجابات الجماهير في فضاءات عمومية متنوعة، في هذه الأنواع من الخطابات.

كما يسعى كتاب «بلاغة الجمهور» إلى تقديم إضافة جذرية إلى البلاغة العربية المعاصرة؛ إذ يستكشف آفاقًا جديدة للعلاقة بين البلاغة ونظريات التلقي، والتواصل، وتحليل الخطاب. كما يُطوّر مداخل منهجية، وتطبيقات دقيقة مبسطة، لدراسة كمٍّ وافر من الاستجابات الجماهيرية على أعمال روائية، وسير شعبية، وخطب سياسية، ووعظ ديني، وتعليقات فيسبوك، وغيرها؛ وذلك بهدف تعبيد الطريق أمام الباحثين الراغبين في ارتياد أفق بلاغي جديد، يُعنى باستجابات الجمهور في الفضاءات العمومية.

ينطلق الكتاب في هذا المسعى من مجموعة من المرجعيات النظرية والمنهجية، أهمها ما أسس له الباحث المصري عماد عبد اللطيف، الذي عمل في أعماله على دراسة ظاهرة تزايد أهمية الجمهور في التواصل المعاصر.

ترجمات

ترجمة مقال ميشال أجيي، في ذكرى رحيل جورج بلانديي [1]



ترجمة: د. وديع جعواني

- ملخص :

تهدف مقالة ميشال أجيي إلى الاحتفاء برحيل عالم الاجتماع الفرنسي جورج بالانديه Georges Balandier المهتم بالقضايا الإفريقية، حيث كان علامة فارقة في الدراسات الإفريقية طوال النصف الثاني من القرن العشرين، وخص القارة بمجموعة من البحوث والكتابات، سواء على مستوى علم الاجتماع أو الأنثربولوجيا. ويعد من أشد المدافعين عن استقلال الشعوب الإفريقية، رافضا للمنهج البنيوي في دراسة القارة، مفضلا عوضا عنه الاهتمام بالسيرورات والسياقات الاجتماعية، ومؤسسا لفكرة الاستقلال الثقافي.

يرى البعض في الباحث جورج بالانديه مدرسة خاصة علم الاجتماع، لكنه يرفض توصيف نفسه بذلك، ويرى في نفسه عالم اجتماع وأنثروبولوجي وكاتب، وكانت من بين اهتمامات جورج بالانديه فهم العلاقات الكامنة بين السلطة والمقدس والرمزية التي حافظت على مكانتها البحثية عند تلامذته وباحثين آخرين مهدت لهم رؤيته العلمية الطريق نحو إنتاج تصورات نظرية حول إفريقيا وباقي المجتمعات المعاصرة الأخرى. وساهم جورج بالانديه Georges Balandier في نشأة العديد من مراكز البحث بفرنسا وإفريقيا ، ومنها ORSC و ORSTOM و CNRS، وكتب في العديد من مجلات علم الاجتماع والأنثروبولوجيا.

المقال:

ولد جورج بالانديه في 21 دجنبر 1920 بأعالي السون، وتوفي في 5 أكتوبر 2016 بباريس. التي عاش بها مراهقته ومرحلة الدراسة الجامعية بمتحف الإنسان (جامعة السوربون)، وشارك في مقاومة 1943-1944. بدأ مشواره كباحث سنة 1946 عندما ذهب في بعثة دراسية إلى داكار حول موضوع «صيادو ليبو lebou» في إطار مكتب البحث العلمي الكولونيالي[2] ORSC، الذي أصبح بعد ذلك[3] ORSTOM مكتب البحث العلمي والتقني ما وراء البحار، قبل أن يتحول إلى المكتب الحالي[4] IRD معهد البحث للتنمية. واستمر جورج في التعليم العالي والبحث في السوربون، وفي القسم السادس للمدرسة التطبيقية للدراسات العليا[5] EPHE التي أصبحت بعد ذلك[6] EHESS ، وله أيضا دور هام داخل المؤسسات البحثية الكبرى، مثل المكتب الوطني للبحث العلمي CNRS وORSTOM خاصة، والتي ساهم داخلها بشكل كبير في تحديد التوجيهات العلمية مثل التوظيفات سنوات -1960 1980.

كان جورج بالانديه علامة فارقة في العلوم الاجتماعية والدراسات الإفريقية طوال النصف الثاني من القرن العشرين، وهي المرحلة التي عرفت كتاباته الأساسية؛ السوسيولوجيا الحالية لإفريقيا

Rihanat_No44 modif 1.indd 72-73 11/02/2018 23:57:37

ترجمة مقال ميشال أجيي، في ذكرى رحيل جورج بلاندي

السـوداء 1955، وإفريقيا الغامضة 1957، الأنثروبولوجيا السياسية 1967، معنى وقـدرة 1971، تاريخ الآخرين 1977، السلطة على الساحات 1980، المنعطف: السلطة والمعاصرة 1985، الفوضى: إشادة بالحركة 1988، وأيضا النظام الكبير 2001. وتشير هذه العناوين وامتداداتها في آن واحد إلى ثبات تصور «دينامي» للعالم الملاحظ عن طريق العلوم الاجتماعية، والمرور مـن نظرة حـول إفريقيا في إطـار الاستعمار1960-1950 إلى تفكير أوسع حول العالم الشمولي globalisé، الذي اتخذ شكله أمام أعين جورج بالانديه ما بين 1970 و2000، لكنه يبقى مرتبطا بإفريقيا، التي تشكل «أرض(٥) المختارة ومرجع(٥)»، وهو ما كتبه في سيرة ذاتية مختصرة نهاية طبعة إفريقيا الغامضة لسنة 2008. ويقول جورج:»لصالح الحفاظ على التجارة طول العشرات من السنين، استمرت في تعليمي(الأرض الإفريقية). ويضيف جـورج: «لقد علمتني مصدر قوة الثقافات والشكل الذي تقدمه الديانات عن تحولاتها... جربت كل شيء، من الفوضى المنظمة إلى الديمقراطيات القروية، إلى المملكات المقدسة والإمـبراطـوريـات المسلحة- الشعوب الإفريقية السوداء».

من دون تـردد تكمن المساهمة الأساسية والريادية لجورج بالانديه في إطلاقه لأكبر حقل من الأنثروبولوجيا مهتم بديناميات التغير الاجتماعي والثقافي، وذلك من خلال طرح أسئلة

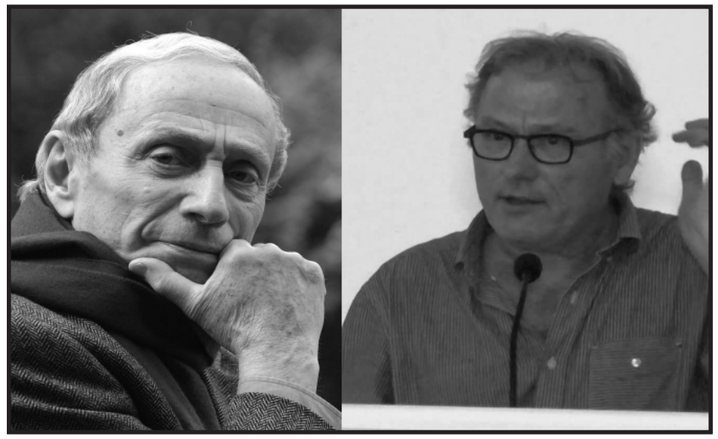

عن السلطة والسياسة في كل أشكالها ومستوياتها، وعـن طريق اكتشاف ميادين جديدة(التحضر، العلاقات بين المستعمِرين والمستعمَرين، التنمية والتخلف، الحركات الاحتجاجية السياسية أو الدينية). لقد انفصل مبكرا عن البنيوية structuralisme الأكثر تجريدا وغير المهتمة بالسياقات السوسيوسياسية، لكن المهيمنة داخـل الأنثروبولوجيا. وطـور على الأراضي الإفريقية بشكل مختلف، وعلى غرار صديقه والمعاصر روجي باستيد Roger Bastide -الذي درس البرازيل وجزر الكراييب- ملاحظته للسيرورات الإجتماعية والـصراعـات التي تنتج عنها، ومثل باستيد وعلم اجتماع جورج غورفيتش، لكن في تقارب أيضا مع الأنثروبولوجيا البريطانية الظرفية situationnelle لمـا بعد الحرب، حيث طـور ماكس غلوكمان وجيمس كليد ميتشال والباحثين في مـدرسـة مانشستر عموما دراسـات ميدانية حـول مواضيع مشابهة في إفريقيا الاسترالية والوسطى(التحضر، التصنيع، السلط الاستعمارية في مقابل التقليدية coutumiers، الاحتجاجات). ويـعـود مفهوم الظرفية/الوضعية الاستعمارية situation coloniale إلى هذه الفترة، التي تشمل قبل كل شيء استبدال الظروف الملاحظة عبر التاريخ والجغرافيا والأخذ بعين الاعتبار المساهمة السيكولوجية للتفاعلات، التي تميزها التاريخانية historicité وسياقاتها السوسيولوجية عن الاثنولوجيا الافريقانية africaniste لمارسيل غريول ودراساته للثقافة الإثنية والقبلية بعيدا عن إطـارهـا الكولونيالي. ويصبح – جورج بالانديه- المدافع عن الاستقلال décolonisation، الذي عبر عن نوع من الاستقلال الثقافي، على سبيل المثال داخل كتابه «إفريقيا الغامضة»، المنشور داخل مجموعة «أرض إنسانية» لجون مالوري، من إنتاج 1957 Plon.

في هذا السياق، ومع كل الوضوح لعلم اجـتـمـاعـي مـنـخـرط سيظهر منظر «انبعاث المـبـادرة reprises d'initiative». ومثل تحضر إفريقيا واستقلالها سنوات 1960-1950 لحظة قوية لإضعاف علاقات الأنساب des cadres lignagers، التقليدية عموما، الملائم لتحرير الأفـراد مثل العمال، المهاجرين أو الحضريين. وهو ما دفع جورج بالانديه إلى إنتاج واحد من أوائل كتب الأنثروبولوجيا الحضرية في إفريقيا السوداء باللغة الفرنسية (سوسيولوجيا البرازافيليين السود)، المنشور من طرف Presses de sciences Po سنة 1955. ودرس وشجع جورج بالانديه في نفس سياق التساؤلات التي كانت تحملها أعمال أجيال أخرى من الباحثين حـول الـحـركـات السياسية-الدينية التي أصبحت واحدة من الموضوعات الكبرى للمرحلة الموالية(سنوات -1960 1970)، إنه يدمج الممارسات الثقافية في «اضطرابات التاريخ»، وعلى النقيض من النزعة الثقافية culturalisme، وعلى مقربة من « المعرفة المباشرة» للميدان، يدافع جورج على أن «الثورة ضد النظام الكولونيالي تهاجم أيضا نظام التقاليد»(في تقديمه لكتاب جيرارد ألتهاب G. Althabe، الظلم والتحرر في المخيال، ماسبيرو 1969/ لاديكوفيرت 2002).

مكن رصد جورج بالانديه للعلاقة الكامنة بين رمزية المقدس و طقوس السلطة «الشكل الأسمى للعبة المأساوية» كأطروحة المرور من الأراضي الإفريقية إلى كل مـسـارحscènes- Le pouvoir sur scènes, Balland 1980, fayard 2006- . فعلى غـرار باحثين آخرين كانوا من بينهم طلبة جورج بالانديه في الدكتوراه، واللذين جعلوا من إفريقيا ميدانا لدراساتهم في البداية، قبل توسيع بحوثهم واهتماماتهم وتحليلاتهم حول كل المجتمعات الحضرية الصناعية والسياسية المعاصرة.

لن نحسم هنا والآن في مسألة التعرف ما إذا كان جورج بالانديه قد «أنشأ مدرسة» أم لا، لأن أي «مدرسة» لا تظهر إلا فيما بعد. إذا كان بالانديه قد أكد أنه ليست له هذه الرغبة، يمكننا مع ذلك أن نجعل من موقفه هذا نسبيا. من جهة عن طريق إعادة جزء مهم من النصف الأول من مساره في إطار سيطرة البنيوية بعيدا عن الأنثروبولوجيا في (اللسانيات، الفلسفة، السيميولوجيا، التحليل النفسي)، لكن في الأنثروبولوجيا أساسا. ومن جهة أخرى مثلما قدمنا هنا بشكل سريـع، مع التأكيد على فتح مواضيع وميادين وتحديد المفاهيم بعيدا عن كل ما قدمته الأنثروبولوجيا إلى حد الآن، مع إعطاء الفرصة لأنثروبولوجيا سيقال عنها حسب الحالات؛ دينامية، سيروراتية processuelle، لكن تـترك من دون جواب أسئلة إبستمولوجية تؤسسها. وأخـيرا تعتبر المشاريع المؤسساتية والعلمية الاستثنائية لجورج بالانديه مساهمات علمية بارزة في مجال البحث في العلوم الاجتماعية، كان لها وقع على «مدرسته البحثية» بالمعنى العام.

الهوامش

1- -Agier, Michel , In memoriam Georges Balandier (1920 2016), Sociologie [En ligne], N° 1, vol. 8 | 2017, mis en ligne le 29 avril 2017.

2 -ORSC :Office de la Recherche Scientifique Coloniale مكتب البحث العلمي الكولونيالي، جاء بهدف إحداث مركز بحثي قادر على تشجيع البحث في المستعمرات الفرنسية سنة 1937 في فترة حكومة ليون بلوم Léon Blum، والذي سيتم تغير اسمه بظهير 1943 إلى ORSTOM.

3 - : ORSTOM l'Office de la recherche scientifique et technique outre-mer، مكتب البحث العلمي والتقني ما وراء البحار، الذي تم إحداثه بظهير 11 أكتوبر 1943، حيث تم أحداث في البداية مكتب البحث العلمي في ما وراء البحار ORSOM، قبل أن يتم الإعلان سنة 1944 عن أحداث مكتب البحث العلمي والتقني في ما وراء البحار ORSTOM.

4 - تحول مكتب ORSTOM والمكاتب المتنامية إليه والمنبثقة منه إلى IRD معهد البحث للتنمية مع ظهير 5 نونبر 1998.

5 - École pratique des hautes études, l'EPHE، المدرسة التطبيقية للدراسات العليا، التي تم تأسيسها سنة 1868، من طرف ارنست رنان Ernest Renan وفكتور دوراي Victor Duruy، من أجل إدخال طرق التكوين الألمانية في البحث .

6 - EHESS ، القسم السادس «العلوم الاقتصادية والاجتماعية» للمدرسة التطبيقية للدراسات العليا EPHE.

Rihanat_No44 modif 1.indd 74-75 11/02/2018 23:57:37

ترجمة مقال ميشال أجيي، في ذكرى رحيل جورج بلاندي

لقد تمكن جورج بالانديه من إنشاء ثلاثة وحـدات إفريقية للبحث، تضم مؤرخين وعلماء اجتماع وانثروبولوجيين -مركز الدراسات الإفريقية في L'EPHE-VI ، الذي أصبح EHESS كمركز للأبحاث للإفريقية في السوربون، باعتباره مختبرا لعلم الاجتماع والجغرافيا الإفريقية في المركز الوطني للبحث العلمي، الذي تم إلحاقه مؤخرا واندماجه مع معهد العالم الإفريقيIMAF- . ولقد أشرف جورج بالانديه على ما يقرب من 200 رسالة دكتوراه، من بينها عدد كبير من الرسائل لطلبة أفارقة، وساهم في توظيف العديد من الباحثين والأساتذة في الدراسات الإفريقية والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، الذين وجهوا اهتمامهم إلى أسئلة التنمية وتحولات المجتمعات.

يقول جـورج بالانديه عن نفسه أنه» انثروبولوجي، عالم اجتماع وكاتب». واستعمل بالانديه مؤسس «علم الاجـتـماع الـحـالي» لإفريقيا السوداء سنوات 1950هذه الصفة أو تلك بشكل متناوب حسب السياقات، ليتميز عن الاثنولوجيين، لكن من دون الأخذ بعين الاعتبار الانثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية "la social anthropology britanique». ويلخص جورج بالانديه مقاربته في دفاعه عن «الأنثروبولوجيا السياسية» لمدة اثنا عشر سنة بعد ذلك. ولقد أدار جورج بالانديه خلال عـدة سنوات الدفاتر الدولية لعلم الاجتماع les cahiers internationaux de sociologie التي أسسها جورج غورفيتش، مثل مجموعة «سوسيولوجيا اليوم» للمطابع الجامعية الفرنسية PUF.

لقد فتح جـورج بالانديه منفذا brèche بـين المـقـاربـات المـوروثـة héritées-البنيوية،الثقافية-، وما يسميه ب»السوسيولوجيا البيروقراطية». فعبر هذا المنفذ brèche تطور علم الاجتماع الشامل، المبني على البحث الميداني باعتباره بحثا منخرطا في فهم الديناميات الاجـتـماعـيـة والثقافية والسياسة الراهنة.■

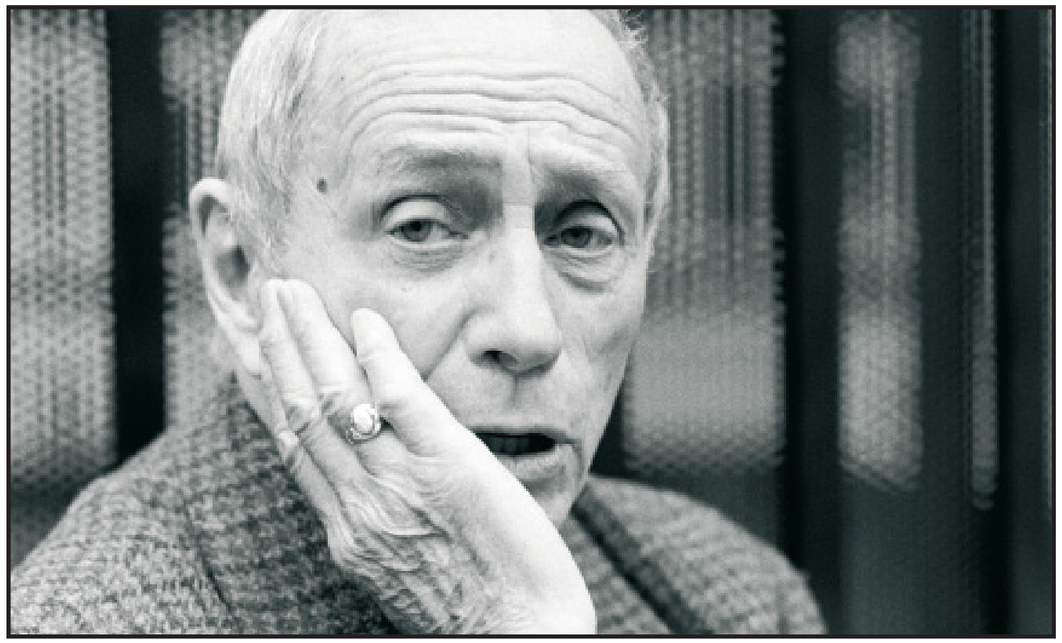

مقالات

الفلسفة والأدب
لقاء كونديرا برمل بورخيس...



حسن الإدريسي

« إننا بحاجة إلى الخيال كي نواجه تلك الفظاعات التي تفرضها علينا الأشياء» بورخيس

- تقديم:

لا تختلف الفلسفة عن الأدب إلا في كون الأولى خطاب نقدي والثاني خطاب مكتوب للنقد، غير أنه مع ذلك يمكن الحديث عن نقدأدبي وعن نقد فلسفي لـلأدب. والـواقـع أن هناك نقد أدبي فلسفي اتخذ اتجاهات عديدة حسب الاهتمامات الفلسفية لكل ناقد، يتعلق الأمرباتجاه الالتزام في الأدب والذي قضى على صحة المسلمة القديمة التي مؤداها أن وظيفة الأدب هي خلق الجمال وإثارة الانفعال في نفوسنا، وقد جعل التساؤل عن دور الأدب مقدمة ضرورية لأي نقد أدبي جـاد. إن الأدب عند أنصار هذا الاتجاه بُعد خاص من أبعاد الوجود الإنساني، وهو بعد فردي وجماعي على حد سواء، والكاتب في العلاقة المزدوجة التي تربطه بالعالم هو الـذي يُظهر لغيره من الناس(القراء) العلاقات فيما بينهم والعلاقات التي تربطهم بالأشياء التي تُحيط بهم. نجد بهذا الصدد نصا شهيرا لفيلسوف الأدب الفرنسي جون بول سارتر في كتابه المعروف « **ما هو الأدب؟** » الذي طرح فيه ثلاث أسئلة رئيسية: ما الكتابة؟ ولماذا نكتب؟ ولمن نكتب؟

هكذا إذا، لم تعد وظيفة الأدب فحسب خلق الجمال وإثـارة الانفعال في نفوس القراء، بل أصبح علامة على الالتزام ومجال لمساءلة الأفكار الفلسفية ونقدها ونقضها(نستحضرهنا مثلا: أدب العبث، وروايـة الأدب اللامعقول) . بهذا المعنى،يمكن الحديث عن فلسفة للأدب أوعن نقد فلسفي للأدبيلغي كافة الحواجز والتخوم بين الفلسفة والأدب. وسنركز في هذه المقاربة/ العلاقة على وجهة نظر كل من الـروائي الفرنسي ميلان كونديرا والأديـب الأرجنتيني خورخي لويس بورخيصباعتبارهما يتقاسمان تصورا واحدا لهاته العلاقة. فكيف تتجلى علاقة الفلسفة بالأدب في نصوص كونديرا و بورخيس؟ وكيف استطاع هؤلاء معالجة مواضيع أدبية بأدوات وخلفيات فلسفية؟ وبأي معنى يمكن اعتبار نصوصهم تجسيدا للعلاقة الوطيدة بين الفلسفة والأدب؟ ثم، كيف يمكن الحديث عن بورخيس كأبرز مُعبر عن قيم فلسفة ما بعد الحداثة؟

أولاً : مـيلان كونديرا : «لـقـــاء»

مـن الـغـريـب أن يجتمع الفكر البرهاني(الفلسفة) بالخطاب التخيلي(الأدب)، ومن العجيب أيضا أن يكون أحدهما قارئا للثاني، لكن كل هاته الغرابة تـنمحي إذا استحضرنا هذين الاثنين بمقربة من المفكر المعاصر مـيلان

Rihanat_No44 modif 1.indd 76-77 11/02/2018 23:57:38

الفلسفة والأدب لقاء كونديرا برمل بورخيس...

كونديرا.فهل يمكن للحداثة الغربية أن يتم التأريخ لها من خلال الرواية ؟

هـذا مـا حـاول **ميلان كونديرا**(1929م-....) أن يؤكد عليه بالإيجاب، معتبرا «**سيرفانتس**» الأب الروحي للفكر الفلسفي الحديث، إنه المسؤول حقا عن نقل الإنسان الأوربي من حـالة القيم الجماعية إلى وضعية القيم الفردية والذاتية من خلال شخصية دون كشوطي، ف «بفضل الرواية- كما يؤكد كونديرا- استطاع الإنسان أن يحتل مشهد أوروبا بوصفه فردا[1] « هذا ما يعني أن مفهوم الذات انطلق من الأدب وبالتحديد من الرواية قبل أن يتحدث عنه ديكارت.

هذا الـوازع المفارق عند ميلان كونديرا في الربط بين الأدب من جهة والفلسفة من جهة أخرى لم يقتصر على التأصيل الأدبي للمشكلات الفلسفية فحسب، بل تجاوز ذلك ليشمل القضايا الفلسفية في النصوص الروائية بصيغة مخاتلة، لا تفصح عن الإحالات الفلسفية للمعاني الأدبية بقدر ما تحاول أن تبين الفرادة الفلسفية للأسئلة التي تطرحها ضمنيا النصوص الروائية.

كما حاول كونديرا أن يعيد النظر في الأسس الميتافيزيقية للفكر الفلسفي والتي سادت حتى اللحظة المعاصرة، خاصة فيما يخص احتقار الفكر الفلسفي للمثل الأدبي وميكانيزماته (الحكي،السرد، الخيال، الاستعارة، الشخوص...إلخ)، وكذا الطابع الاستعمالي والآداتـي الذي تعامل به بعض الفلاسفة المعاصرين مع الأدب من حيث كونه مجرد مسرح لجعل الأفـكـار الفلسفية ترقص في حفل ليس بتـنـكـر(سارتر، ألبير كامي، كافكا...).

في نصوص كونديرا، نجد حضورا **لشوبنهاور** كإحالة على الغياب، فإرادة الحياة المتشائمة تتكلم داخـل النص الكوندروي بلسان شخوص أبت إلا أن لا تُنجب، محققا بذلك حلم شوبنهاور في إنهاء الجنس البشري، ولكافكا في النصوص التي لم تُعد لقراءة كافكا أو الإشارة إليه.

يحدثنا كونديرا في لقاء أو«une rencontre » - كما في العنوان الأصلي للطبعة الفرنسية 2009- عن «الغياب المضحك لما يثير الضحك»[2]، في نص» الغبي» أو» الأبله « لدستويفسكي، وعن « الرواية والإنجاب»[3] ووهم الخلود البشري في « مائة عـام من العزلة» لغابرييل غارسيا ماركيز[4] وعن « المنفى المحرر»[5] بلغة فييرالياهرثوفا، وعن سؤال الجمال الفني عند تشونبرغ أو» ذلك الحفل الذي ليس بحفلي»[6]، وعن الإرث بمعناه الإستطيقي عند رابلي[7] وبيتهوفن[8] وكارلوس فوينتس .[9]

« إنها جمالية لقاء متعدد[10] » بالنصوص والـشـخـوص، فـأيـن تبدأ الفلسفة وينتهي الأدب في نصوص كونديرا؟ هل نحن إذن أمام فيلسوف قارئ للأدب أم أمام أديب يتفلسف؟ أم نحن أمـام نمط جديد من التفكير يهدم الحواجز الميتافيزيقية بين الفلسفة والأدب؟

يمكن البَوح وبكل صراحة أننا أمام تفكير جديد يلج عالما يؤسس أرضية جديدة للتفكير على شاكلة الكتابة بيدين على حد تعبير المفكر المغربي عبد السلام بنعبد العالي. بهذا النحو تلتقي الفلسفة بالأدب في « لـقـاء « لا على نحو اعتباطي أو خاضع لمنطق الصدفة، بل على نحو واع وقصدي، الغرض منه إظهار الفكرة في الرواية في فرادتها وتميزها، لا من حيث هي صدى لفكرة فيلسوف أو مرآة تعكس مجرى أنطولوجيا، بل على أساس أن الرواية يمكن لها أن تتفلسف خارج قوالب الفكر الفلسفي.

إن الرواية حسب كونديرا ليست مجرد حكي أوسرد، إنها أكثر من ذلك، حقل ألغام، يزرع القلق في نفس كل من تجرأ على المرور منها، وهذا ليس شيئا عاديا أو بسيطا، فكونديرا خَبر الرواية، أليس هو صاحب الرواية الشهيرة « الضحك والنسيان « التي نالت من المدح ما لم تنله أية رواية غربية بعد «دون كيشوط « لسيرفانتس ؟ كما أنه خبر النقد الأدبي بوصفه اتجاها من اتجاهات الفلسفة المعاصرة.

يعترف كونديرا نفسه سنة 1977 قائلا « كُنت أكتب وأنا ما أزال مسكونا بذكريات من بلادي التي غادرتها لتوي والتي كانت ما تزال ثاوية في ذاكرتي بوصفها أرضا للاستنطاقات والمراقبة[11]» و «لا يمكنني اليوم أن أكذب أنني كنت صادقا وأنـا أكتب، لقد كتبت أغلب رواياتي وأنا أضحك لأنني تحولت إلى كاذب (كذاب)، ذلك لإنني لم أكن أنقل ما كان يجري بالضبط، بل كنت أكتب فلسفتي عن الحياة»[12]

وأجود التعليقات التي قدمت حول أعماله - يقول كونديرا- هي التعليقات التي قدمها نفسه، ففي حـوار له «مع سلفيستر سنة 1976، وحوار مع أرشيمبود سنة 1992»[13] تحدث بشغف عن كتاباته وحاول أن يصنفها إلى مراحل، معتقدا أن الأديب وحده القادر على أن يُؤول أعماله، لذلك يجزم بالقول على أن الأديب إن لم يكن بمقدوره أن يُنتج خطابا نقديا تجاه أعماله لا يمكن له أن يكتب أبدا.

ثنائية الأدب والفلسفة هي ثنائية الخطاب والرسالة، والأدب الـذي لا يتضمن رسـالـة هـو الأدب الـذي لا يتوفر على الحد الأدنى من التفكير الفلسفي . بهذا المعنى، نفهم كيف زاوج كونديرابين الكتابة الأدبية والنقد الفلسفي بوصفهما عنصران محايثان لبعضهما البعض ومترابطان ومتداخلان داخل النص في حد ذاته. لذلك لا يحتاج الأدب إلى قراءة فيلسوف منفصل ذاتيا وموضوعيا عن النص لأن الأديب نفسه مطالب بأن يكون فيلسوفا أو على الأقل كما يقول كونديرا « فيلسوف نصه « أو نصوصه.

هكذا يفتح كونديرا نقاشا نقديا من نوع آخر، ليس حول علاقة الفلسفة بـالأدب أوعلاقةالأدب بالفلسفة وإنما حول علاقة الأدب بصاحبه، وهـذا لا يعني إلغاءً أو رد فعل تجاه خطاب موت الكاتب أوموت المؤلف كما هو الشأن عند البنيويين، وإنمـا محاولة لإعادة النظر في طبيعة الأدب نفسه من حيث إنه ليس خطابا تخيليا، بل هو في حد ذاته خطاب إشكالي يُقدم وجهات نظر بصدد إشكالات وجودية وقيمية ومعرفية.

لمن نكتب ؟ يجيب كونديرا في مؤلفه « فن الرواية « قائلا :» إننا نكتب كأدباء لا ليقرأنا القراء، بل لنتحقق من امكانيتنا في تبليغ أفكارنا، والكاتب الروائي أو القاص أو الشاعر الذي يظن أن نجاحه مرتبط بتسجيل أكبر عدد من القراءات واهم في ذلك[14]» ، إن النجاح الحقيقي هو حسب كونديرا « أن يتبع النص حاشية عنه باسم المؤلف نفسه»[15] وهو يستشهد في ذلك بحاشية على «إسم الوردة « الذي كتبه أمبرتو إيكو تعليقا على نصه الشهير « إسم الوردة» .

بهذا الشكل يدافع كونديرا عن كون الكتابة الأدبية دائما ما تكون لها امتدادات فلسفية أو ربما تكون الأفكار الفلسفية هي الأصـل الأول للكتابة الأدبية، فتعليق الكتاب أنفسهم عن كتاباتهم دليل على أن الكاتب يكتب وفي نفس الوقت يستشكل أو يجيب عن إشكالات. لكن نتساءل بصدد ما قاله كونديرا على النحو التالي :

لماذا حينما يُقدم أعمالا نقدية غالبا

الهوامش

1 - ميلان كونديرا، لقاء، ترجمة محمد بنعبود، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى 2011، ص : 49

2 -نفس المرجع، ص : 29

3 - نفس المرجع، ص : 48

4 -يشير كونديرا هنا إلى ملاحظة في غاية الدقة وهو أنه ليس لأبطال الروايات العظيمة أبناء، ليس لبانتاغرويل ولا لدون كيشوت ذريةوكل أبطال ستاندال لا أبناء لهم كما هو الشأن للكثير من أبطال بالزاك و دوستويفسكي، هذا العقم ليس ناتجا عن نية واعية للروائيين، بل هو روح الرواية

5 - نفس المرجع، ص : 117

6 -نفس المرجع، ص : 157

7 - نفس المرجع، ص : 73

8 - نفس المرجع، ص : 79

9 - نفس المرجع، ص :

Rihanat_No44 modif 1.indd 78-79 11/02/2018 23:57:38

الفلسفة والأدب لقاء كونديرا برمل بورخيس...

ما يُخصص حيزا كبيرا لروائيين آخرين مثل : صامويل بكيت وستاندالوكافكا وبروست وإميل زولا وسيرفانتس، بل وعن موسيقيين كبار ك «موزار» و بيتهوفن، وعلماء كبيكون ، وعن مسرحيين كشكسبير؟ هل يستحضر بذلك «أناه « في هؤلاء بالشكل الذي يجعله يصفق ولو بشكل مُضمر لما قاله دريدا «من أنا ؟ أنا هو كل هؤلاء الذين ليسوا أنا، التي قالها صاحب التفكيك حينما سُئل عن سبب تفكيكه لنصوص أخرى دون نصوصه الخاصة.

ثانيا : خورخي لويس بورخيس: الأب الروحي لفلسفة ما بعد الحداثة

من العجيب أن خورخي لويس بورخيس(1986 1899-م) لم ينل جائزة نوبل للأدب ولا أي إشادة بأفكاره الفلسفية إلا بعد مماته، ليبقى « كتاب الرمل « شهادة على مأساة أديب كبير لم يتم الاعتراف به إلا بعد وفاته، تاركا سؤالا محيرا مفاده : الأدب ليس فكرا للامتلاء أو السعادة، إنه علامة على الفراغ والشقاء. تسأل بورخيص ذات يوم قائلا: ليس السؤال الحقيقي هو لماذا ثمة شيء عوض لا شيء، إن السؤال الحقيقي هو لماذا ثمة شيء عوض شيء، ضاربا كل المعرفة البشرية عرض الحائط، معبرا بذلك عن موقف عدمي أصبح على حد تعبيرجونبودريار» هو نيتشه القرن الواحد والعشرين».

في استعارة «الخريطة» [16] يعبر بورخيس عن عوالم لا متناهية، كلها واقعية لأنها متخيلة، منتقدا بذلك فكرة المطابقة التي انبنت عليها الفلسفة الحديثة، فالخيال بالنسبة إليه ليس مناقضا للواقع أو للحقيقة بقدر ما هو إمكانية من إمكانيات وجودنا، لكن تم إهماله وتهميشه وإقصاؤه في المثون الفلسفية.لذا فإعادة الاعتبار للرواية هو في حد ذاته إعادة الاعتبار للخيال، إننا حينما نكتب نتخيل وبنفس القدر أو بنفس المنطق حينما نعيش فإننا نتخيل فأيهما نختار ؟ يجيب بورخيص بمنتهى الوضوح قائلا : « حينما نخلد للنوم يستيقظ فينا أنا آخر يدعونا لأن نكون أكثر مما نحن عليه»[17] ، وهذا الأنا الثاني هو الطفل المدلل للأدب.

في نصوص بورخيس سخرية حادة من قيم ومبادئ الحداثة التي قامت عليها الحضارة الغربية ونقدا لاذعا لأثون الفلسفة التقليدية الحاملة لفكر الخلاص. لقد شهدت فلسفة ما بعد الحداثة تحولا نوعيا بانتقالها من قراءة نيتشه والتفكير في مرآته إلى قراءة بورخيص وتوظيفه كأبرز مُعبر عن قيم فلسفة ما بعد الحداثة، هنا تلتقي الكتابة الأدبية بالمعرفة الفلسفية من حيث إسهام الأولى في هدم وتحطيم القواعد الثابتة للثانية، إذ حولتها إلى فضاء متردد ولا يقينييبخس قيمة الأفكار المجردة لصالح الوقائع المعيشية دون السقوط في أسر التصورات الواقعية التجريبية الساذجة. لقد راجع بورخيس مفهوم العقل وانتقد التصورات الإطلاقية القائلة بإمكانية بناء تصورات نظرية مجردة، كما راجع مفهوم الواقع مجردا إياه من صفة المطابقة مانحا إياه صفة الخيال. سخر كذلك من كل أنبياء الحقيقة وحراس العقائد الدوغمائية الراسخة (ديكارت، ليبنز، كانط، هيجل...) من حيث كونهم يختزلون قدرة الإنسان التخيلية في لحظة من لحظات نموها. في هذا السياق، يستلهم بورخيس الإرث الأدبي والحِكَمي الشرقي القديم (الهندي والصيني على وجه الخصوص) كنموذج يتعارض من حيث الأسس والمسلمات مع الفكر الغربي الحديث. إن ما عبر عنه بورخيس نجد له امتدادا عند ميشيل فوكو حينما تطرق لمسألة التصنيف في كتابه « الكلمات والأشياء»، فالتصنيف الغربي الحديث يستند على مبادئ العقل المنطقية، في حين يعتمد التصنيف الصيني على أسس استيهامية يتداخل فيها الخيالي بالديني بالأسطوري وبالحكايات الشعبية.

إن أرض بورخيس» هي الحلم والوهم واللايقين. كل شيء لا يؤدي إلى شيء»[18] فقد حاول بورخيس أن يُبين أن العالم كواقع وتمثل لا يمكن بناءه بناء برهانيا فحسب، لأن الخيال بإمكانه أن يُعلمنا مبادئ الواقع الحقيقية، ففي « كتاب الرمل « يستحضر حكاية الخريطة والإمبراطورية الصينية وحكايات إنجاز تاج محل في الهند، مبينا من خلالهما أن ما يكتبه الأدباء ليس كذبا وليس مُجانبا للحقيقة أو الصواب، بل يجب النظر إليه من زاوية فلسفية معينة لا تعتبر العالم مقولة جدية بقدر ما هو حكاية ساخرة وهزلية أو على حد تعبيره « لعبة سخيفة».

هكذا، يبني بورخيس من خلال نصوص أدبية بسيطة تصورا فلسفيا للعالم والتاريخ والوجود بشكل عام، من حيث هو سلسلة من الأحداث بدون قصدية وتراكم زمني، بدون غاية وشخصيات متعددة وبدون أثر.بهذا المعنى، استحال الوجود عند بورخيس إلى عالم سيوراني (نسبة إلى إميل سيوران) غارق في التشاؤم، لكن فيه بصيص تفاؤل مفاده أن الإنسان يمكن أن يضفي نوعا من المعنى على العالم بمُنتَجِه التخيلي. في هذه الحدود القصوى لتصور بورخيس نجد تقاطعا واضحا بينه وبين فلاسفة آخرين أمثال نيتشهوكيركجاردوسيوران... إلخ

لكن أصالة بورخيس وتفرده تكمن في كونه لا ينتهي إلى موقف عدمي كما عبر عنه نيتشه أو موقف وجودي كما هو الحال عند كيركجارد أو نهاية مأساوية كما هو الشأن عند صاحب» المياه كلها بلون الغرق «، بل يصل في النهاية إلى أن « الرمل « ولو أنه إحالة على كائنات مادية ضئيلة إلا أنها تستطيع أن تؤسس لعالم مُثخن بالرموز والمعنى والدلالات وهو حال الإنسان، فرغم ضآلته في الكون وخاصية الزوال واللاخلود وحجمه اللامرئي ضمن الكون الفسيح، إلا أنه بخياله يمكن له أن يستوعب الوجود بأكمله أو الكون كله في كلمة واحدة مثل «الأفق»، وهذا الأفق حسب بورخيس لن يكن إلا أفقا تخيليا، رمزيا، وهذا ما يدعو إلى إعادة استحضاره واستنبات شروطه، لأن العقل الغربي الآذاتي بتقنياته وأفكاره الهدامة حوَّل العالم إلى مواد وجرده من كل قيمة رمزية. بهذا المعنى ننفتح على بورخيس آخر، ليس ذلك الأديب فقط، بل الناقد الاجتماعي والفيلسوف الملتزم بقيم الثقافة.

يتساءل بودريار بصدد عرضه لفكرة بورخيس حول تجدد العالم، « من أين يستمد هذا المفكر الأمريكي اللاتيني كل هذا النقد للحضارة الغربية ؟ يجيب بودريار بمنتهى الوضوح قائلا : لا يمكن أن يكون المصدر غير ثقافة الهنود الحمر التي يمثل بورخيص فعلا سليلها الأصيل، أو على الأقل أحد باعتي الروح في قيم الأنكاورمايا» [19].

على سبيل الختم:

هكذا اقتربنا مع كونديرا وبورخيس من فكرة مفادها أن الأدب والفلسفة، خاصة الرواية، ليسا عالمين منفصلين أو مجالين متداخلين بقدر ما هما عالم واحد. إن لقاء الفلسفة بالأدب، هو لقاء بين الكلمة والفكرة، لكن ليس على شاكلة فضائين منفصلين أو آلتين متباعدتين، بل على شاكلة يدين يحتاجهم الإنسان معا بالضرورة للتصفيق، وهذا ما نجده بشدة عند ميلان كونديراصياد اللقاءات الروائية، وعند خورخي لويس بورخيص المبدع الذي ولد بعد وفاته والأب الروحي لفلسفة ما بعد الحداثة.■

الهوامش

10 - ن نفس المرجع، ص : 93

11 - نفس المرجع، ص: 13

12 - ميلان كونديرا، الضحك والنسيان،ترجمة محمد بنعبود، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى 1977، ص : 44

13 - ميلان كونديرا، لقاء، مرجع سبق ذكره، ص: 15

14 - عن مقال « النقد الأدبي والفلسفة» لوصي صادق، ضمن مجلة المثقفين العرب، السنة الثامنة مايو 1978، العدد 86، ص : 99

15 - المرجع نفسه، ص: 99

16 - جون بودريار، الفكر الجذري، ترجمة أحمد القصوار منير الحجوجي، منشورات دار توبقال، الطبعة الأولى 2010، ص: 32

17 - خورخي بورخيص، كتاب الرمل، ترجمة سعيد الغانمي، سلسلة إبداعات عالمية، دار أزمنة، عمان، الطبعة الأولى 1989، ص: 45

Rihanat_No44 modif 1.indd 80-81 11/02/2018 23:57:39

الفلسفة والأدب لقاء كونديرا برمل بورخيس...

الهوامش

17 - خورخي بورخيص، كتاب الرمل، ترجمة سعيد الغانمي، سلسلة إبداعات عالمية، دار أزمنة، عمان، الطبعة الأولى 1989، ص: 45

18 - المرجع نفسه، ص: 7

ببليوغرافيا:

- بالعربية:

- ميلان كونديرا، لقاء، ترجمة محمد بنعبود، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى 2011
- ميلان كونديرا، الضحك والنسيان، ترجمة محمد بنعبود، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى 1977
- مقال « النقد الأدبي والفلسفة» لوصي صادق، ضمن مجلة المثقفين العرب، السنة الثامنة مايو 1978
- جون بودريار، الفكر الجذري، ترجمة أحمد القصوار منير الحجوجي، منشورات دار توبقال، الطبعة الأولى 2010
- خورخي بورخيص، كتاب الرمل، ترجمة سعيد الغانمي، سلسلة إبداعات عالمية، دار أزمنة، عمان، الطبعة الأولى 1989

- بالفرنسية:

- Jean Baudrillard, carnaval et canibale, L'herne, 2008

منشورات مدى

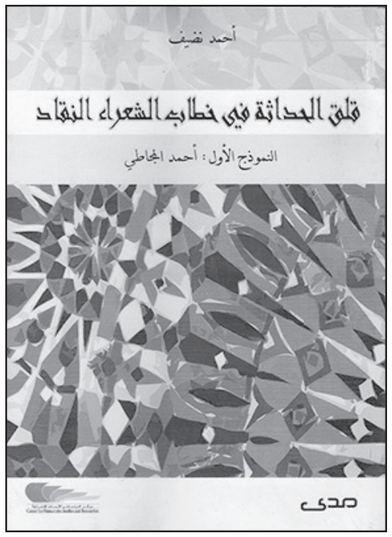



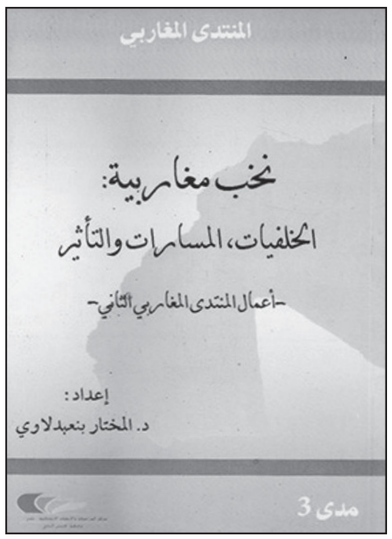

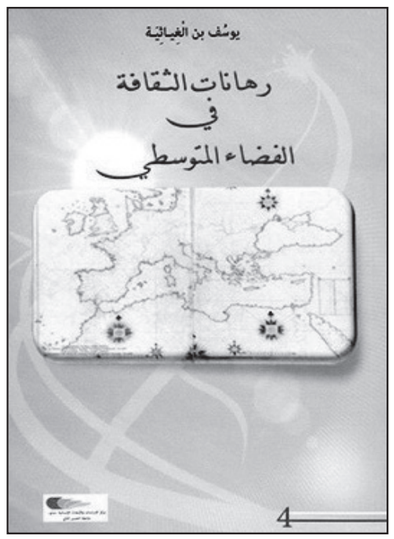

Rihanat_No44 modif 1.indd 82-83 11/02/2018 23:57:39

آخر أعداد مجلة رهانات

العدد 40



العدد 41



العدد 42



العدد 43



Rihanat_No44 modif 1.indd 84 11/02/2018 23:57:39